مملكة هرمز .. الفقاعة الذهبية

السلسلة التاريخية

تأليف: ابراهيم بشمي

9

Bibliotheca Alexandrina
01327742

اصدارات:
مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر

مملكة هرمز
الفقاعة الذهبية

تــأليف: ابـــــراهيم بشمــي

الكتاب: مملكة هرمز.. الفقاعة الذهبية
المؤلف: ابراهيم محمد بشمي

الحقوق: جميع الحقوق محفوظة

الناشر: الطبعة الاولى: مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر
المنامة ـ البحرين ـ ص . ب 3232
هاتف: 727111 ـ فاكس 729009

مملكـــة هـــرمز
الفقـاعـة الذهبيـــة
ابـــراهيـــــم بشــــــمي

الناشر: مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر

مقـــــدمة

هـذا الكتاب يجمـع بين دفتيه اختيـارات ومنتقيـات من دفتر التاريخ، ذلك التاريخ الذى ينوء على كاهلنا، لنتحول فى نهاية الأمـر الى مجرد حكايـة من حكـايـات التـاريخ، ان استحقت معاناتنا ان توضع فى خانة الحكايات التاريخية.

وننتقل فى هذا التـاريخ، حينما يكون انتقـاؤنا مدروسـا من عصر الى عصر، ومن حقبـة الى حقبـة، ومن مـوضـوع الى موضوع، ولكـن هذا الانتقال لا يتم عشوائيا، بـل هو انتقال وانتقاء مـختـار، انتقاء يحاول ان يستحضر جزئيـات التاريخ المختلفة، لكي تلقى الاضواء على ما ينـوء على كاهلنا من ثقل التاريخ المعاصر.

وليس القصـد من هـذا الانتقـاء لكـى نقول ان الكـل بـاطل وهبـاء، وانه لا جـديـد تحت الشمس، وان مـا حدث حـدث، ولكن حتى نقول بأن الانسان على مر العصور هو الانساني، يواجه التجارب التى يواجهها بشجاعة احيانا، وبحمق احيانا اخرى، وباخطاء يمارسها، وبرفق نقول هذا هو حالنا جميعا تملك الضعف الانسان، فـدعونا نتعظ مـن تجارب الآخرين، فالحكيم هو من يتعظ من الآخرين.

لذا جاءت هذه الاختيارات التى تمت بـانتقائية الكاتب، وهى انتقائية تحكم توجهـه فيما يختاره، فما تختاره هو اختيارك انت، وذوقك انـت، وتجربتك أنت، وعبرتك انـت. ونرجـو ان نكون ممن احسن الاختيار والانتقاء.

ابراهيم بشمي

جزيرة عبر العصور

من هما «السيد الحلو» و«سيدة الشرب» اللذان عبدهما شعب دلمون ؟

أنزك يصدر تمر ماركة دلمون الى بلاد الرافدين

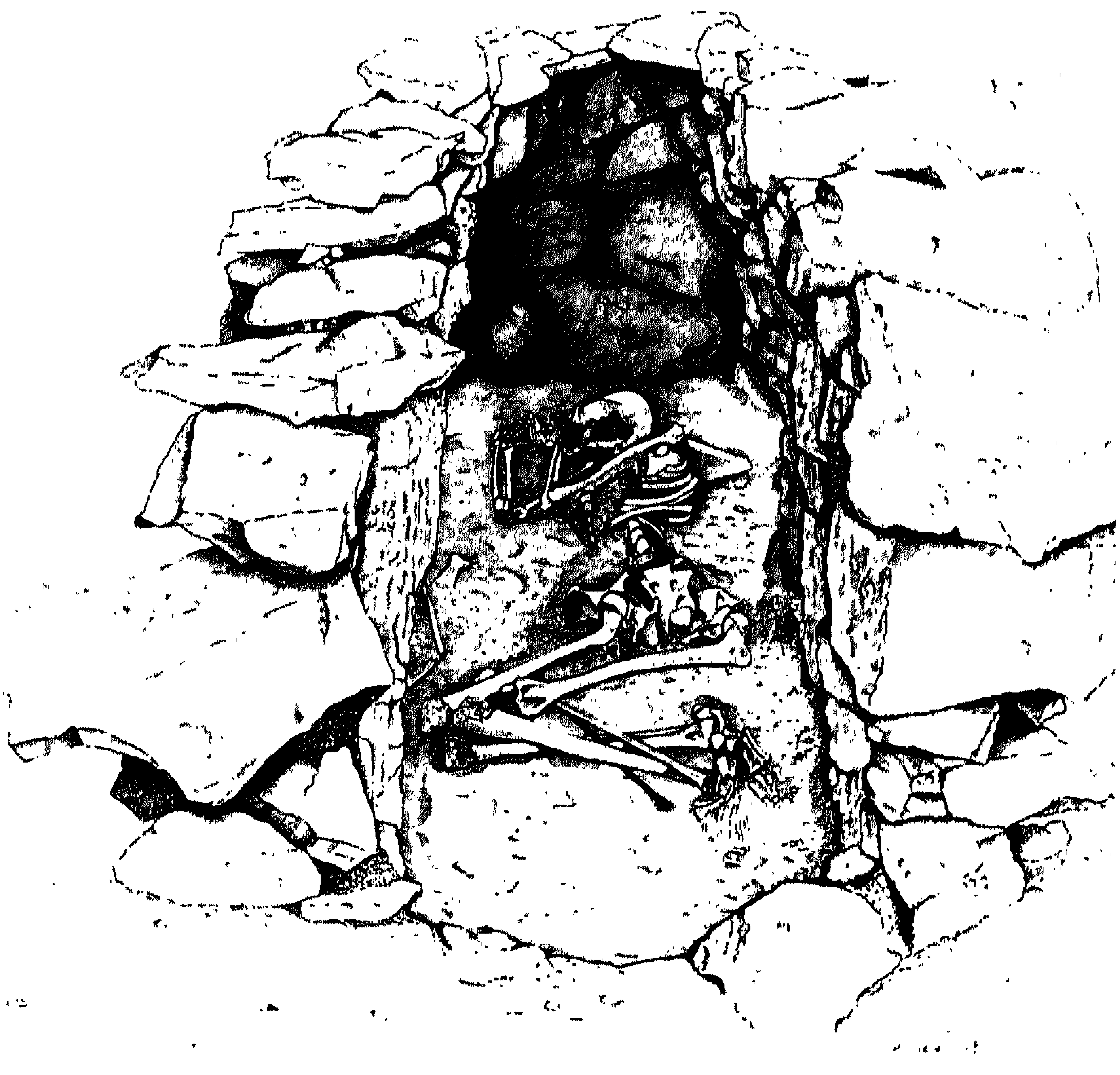

البحرين تلك الجزيرة الصغيرة بمساحتها ، الصغيرة بسكانها ، الصغيرة بمواردها الاقتصادية، لعبت دورا كبيرا عبر عصورها المتعددة .

لماذا ؟ ولماذا ؟ علامات استفهام كبيرة حاول من خلالها أكثر من مائة باحث تقديم الاجوبة .. ولكن في الحقيقة ظهرت المزيد من الاسئلة .. اسئلة الازمنة السحيقة الخارجة من دلمون .. أسئلة العصور الاسلامية .. وأسئلة العصور الحديثة .

من يعرف (سيدة الخبز) و(سيدة الشرب) ؟! لا أحد يدرى الى من يشير هـذان الاسمان اللذان وردا فى وثيقـة اقتصاديـة . لكن معظم البـاحثين يعتقدون ان دلمون كانت تؤمن بنظام الآلهة المتعددة .

الاستاذ خالد الناشف فى بحثه عن آلهة دلمون يعتقد ان (انزك) Inzak هو الاله الرئيسى لدلمون . وليس هذا فقط . بل ان المعبد الرئيسى فى فيلكا قد كان مخصصا للآله انزك .. بل ان اسم الآله انكى ENKI يرد فى احد الاختام الدلمونية .. فلماذا ؟

ان العلاقة الواضحة بين دلمون وأريدو Eridu فى بلاد الرافدين لم تكن محصورة فقط بالقرب الجغرافى والتراث الادبى السـومرى . بـل يفترض الباحث ان انكى ودمجال نونا DAMGAL - NUNA هما عبارة عن اسمين يعنيان الآله انزك وقرينته ميسكيلاك . والذى يؤكد ذلك الافتراض هـو : غصن النخلة المحفور الى جانب نقش البحـرين الذى يذكـر بالآله انكى ، ولا يمكن ربط هذا الشعار الا بالآله انزك .. الذى هو الاله الرئيسى لدلمون .

ويحتوى أدب الاساطير السومري على بضعة شواهد على آلهة دلمون ، ففى أسطورة انكى يقوم بتعيين نين ـ سيكيلا لتكون الآلهـة المسئولة عن دلمون ، ويبدو ان الاسم الاصلى للآله انزك بمعنى (السيد الحلو) حيث تربط الاسطورة اسمه بالنخلة وهذا تـأكيد عـلى ان الاسم لم يكن سومـريا فى الأصل .

يعتقد الاستاذ الناشف ان وظيفة الآله انزك كان اله النخلة ، وهناك تمر خاص فى بلاد الرافدين يطلق عليه تمر دلمون ربما بسبب كون التمور احدى السلع الاساسية لتجارة الدلمونيين ، لهذا فليس من المستبعد ان يكون الاله الرئيسى لدلمون مسئولا عن النخلة حيث وجـد ان غصن النخلة كان عـلى النقوش المهداة الى انزك .

كما احتل الاله انزك اله دلمون موقعا متميزا لدى مدينة (سوسا) بسبب انشغالهم بالعالم الآخر فى الديانة العيلامية ، الا ان المعلومات المتوفرة لا تكفى لتوضيح ظاهرة وجود هذا الآله فى كل من سوسا ودلمون .

المهم يخلص الباحث الى ان دلمون كـانت تعبد الهـا رئيسيا هـو انزك INZAK وقرينته ميسكيلاك MESKILAK كما ربط هذان الثنائى فى فترة من الفترات مع آلهة مدن أخرى ، الا انه حتى الان ليس بالامكان تحديد اللغة التى ينتمى اليها هذان الاسمان .

والسؤال الأهم ما هى اللغة .. أو لنضعها فى صيغة أدق ما هى كنه الكتابة الدلمونية .. وهل يمكن قراءتها ؟ هذا ما حاول ان يطرحه الباحث البحريني على أكبر بوشهرى خريج احدى الجامعات الامريكية . فى بحثه المقدم باسم (تطور الكتابة الدلمونية بالادماج) يعتبر هذا البحث هو الأول من نوعه .

كان يوجد فى دلمون ٤ أنواع لنظام الكتابة والنقوش : اثنان منها فى بلاد الرافدين وهما عبارة عن الكتابة التصويرية والكتابة المسمارية ، والثالث مكون من نظام الكتابة الدلموني المدمج ، واخيرا الكتابة على طراز وادى الهندوس .

كانت الكتابة المدمجة تستخدم للاغراض الفنية والدينية على أختام دلمون ، ويرجع السبب الى صعوبة الكتابة والقراءة بهذا النظام ، ولم يكن مناسبا للمعاملات التجارية وتميزت هذه الكتابات باشكال متنوعة تشبه الشكل الاصلى أحيانا وتختلف عنه أحيانا اخرى وتمتاز كل هذه الاشكال بنوع من الإبتكار والجمال .

كان نظام الكتابة الدلمونية مبنيا على الكتابة التصويرية السومرية ، ومن المعروف بان السومريين والاكادميين اخترعوا كتاباتهم المسمارية ، لكن الدلمونيين استخرجوا واستنبطوا نمطا جديدا لفن الكتابة وقاموا بتبسيط وتيسير الكتابة التصويرية عن طريق تخفيض عدد الخطوط فى كتابتها الا انه من غير الواضح حتى الآن ان كان الدلمونيين قد نطقوا بنفس اللغة أيضا .

والسؤال لماذا اختارت دلمون نظام كتابة غير الذى كان رائجا فى الرافدين ؟ ولماذا لجأت دلمون الى تطوير الكتابة المسمارية بشكل مختلف تماما ؟

هذا ما يحاول الباحث الاجابة عليه خصوصا وان البعض من الباحثين يعتقد بان حضارة دلمون كانت حضارة ليس لها أى مرجع كتابى .

يعتقد الباحث بان هذا الرأى غير صحيح . اذ كيف يمكن لحضارة دلمون ان تكون حضارة قديمة ومتقدمة وتمثل ثقافة مختلطة دون ان يكون عندها نظام للكتابة ؟ وكيف تم الاتصال بين طبقاتهم المختلفة وجالياتهم المتباينة من سومر والهندوس ، اذا لم تكن لديهم المعرفة بعلوم الفلك والملاحة والموسيقى والعملات التجارية ؟ .

ان دلمون استخدمت جزءا من كتابة الرافدين المسمارية وجزءا من كتابة وادى الهندوس ، ونعلم أيضا بانهم استخدموا الكتابة السومرية التصويرية وقاموا بتطويرها لنفعهم . صحيح ان بلاد الرافدين قامت بتطوير الكتابة الى المسمارية ، لكن دلمون أدخلت عليها مزيدا من الابتكار والتعديل وحصلت على نظام ما يسميه الباحث (الكتابة المدمجة) .

لم تكن هذه العملية عملية تطوير فحسب بل أعادت هيكل الكتابة الصورى ، ووضعها فى قوالب جديدة دون تشويه أشكالها الرئيسية ، ولقد استخدمت هذه الكتابة على الاختام فقط وكتبت كلماتهم باشكال مختلفة حسب أهمية الكلمة حتى ان كلمة (نانا) آلهة الحب والجنس قد كتبت بـ ٥٢ شكلا متباينا .

ويعتقد الباحث بان دلمون ربما استخدمت كتابة وادى الرافدين المسمارية لسجلاتها الرسمية وكتابة وادى الهندوس لتنقلاتها التجارية ، واستخدمت الكتابة المدمجة للتمثيل الديني والفني .

كانت دلمون حضارة متقدمة ذات نظام للكتابة .. الكتابة باسلوب الادماج بواسطة تركيب الكلمات وتبسيط الاشكال التصويرية الاصلية بالتدريج الى شكلها النهائى المدمج بالمراحل .. أى بواسطة تبسيط الكتابة التصويرية بواسطة تمثيل الكلمات باشكال أبسط وخطوط أرفع .

لقد كانت لدلمون ثقافة قديمة مكونة من اختلاط عدة ثقافات مختلفة واستخدمت كتابات مختلفة ، لأغراض مختلفة .. وكان لديها نظامها الخاص للكتابة المدمجة وهذا ما يتوصل اليه الباحث بعد ٦ سنوات من الدراسة . ونعبر العصور بعجالة الصحافة .

دلمون ـ تايلوس ـ أرض الحياة ـ أرض الطهارة ـ وندخل الى البحرين ـ أوال ـ هجر .. والاسلام .

يقول الدكتور عبداللطيف كانو فى بحثه البحرين فى صدر الاسلام .. لقد تأثر سكان البحرين بالديانات المتواجدة فى شبه الجزيرة العربية فاعتنقوا الوثنية واليهودية والنصرانية والمجوسية ، كما ان بعضهم قد اعتنق عقيدة عقيمة جاءت اليهم من بلاد الفرس هى عبادة الخيل (....) وفى العصر الجاهلى الاخير قبل دخول الاسلام كان أهل البحرين يعتنقون ثلاث ديانات هى : اليهودية ـ والنصرانية ـ والمجوسية . وكان النصارى يتعبدون فى

الكنائس والاديرة ، فقرية الدير فى جزيرة المحرق هى نسبة الى دير مسيحى ، وكذلك كان يوجد كنيسة فى قرية سماهيج المحرقية .

وفى السنة السابعة من الهجرة النبوية .. وقبل شهر محرم من السنة السابعة الهجرية (مايو ٦٢٨ ميلادى) وصلت رسالة النبى ﷺ الى أهل البحرين تدعوهم الى الاسلام .. وقال المنذر بن ساوى لابى العلاء الحضرمى .. لقد نظرت فى هذا الامر الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فوجدته للآخرة والدنيا .. فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت .. ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده وان من أعظم ما جاء به ان يعظم رسوله وسأنظر .

ولقد كان اسلام أول نصرانى على يد الرسول ﷺ من البحرين ، وهو بشر بن عمرو بن حنشى الجارود وهو من اشراف الجاهلية .

ويثير الانتباه كما يقول باحث آخر ان علاقة الرسول باهل البحرين كانت متميزة أو ذات علاقة حميمة ، وتشير الى ذلك كتبه ولقاءاته وثناؤه الجم على سكان البحرين .

دخل أهل البحرين فى دين الله أفواجا بدون قتال أو حرب أو مطامع .. الا ان أهل البحرين .. حالهم حال اخوانهم العرب قد ارتدوا كما ارتد غيرهم بعد وفاة النبي ﷺ وحاصروا المسلمين منهم الا ان ابا العلاء الحضرمى دخل معهم معركة فاصلة كان النصر فيها حليف المسلمين .

وبعد هذا الانتصار الاسلامي كان أهل البحرين بقيادة أبو العلاء الحضرمي أول مسلمين يركبون البحر فى سبيل الجهاد متجهين الى فتح فارس سنة ١٧ من الهجرة رغم ان الحملة لم تكلل بالنجاح .

وفى عهد الخلفاء الراشدين كانت البحرين كما يقول الاستاذ على حبيبة تساهم بجهد ملحوظ فى الفتوحات الاسلامية ، ولم تعرف بها معارضة قوية ضد أحد الخلفاء الراشدين ، ولقد عرف ان اتجاه الناس وميولهم فى هذه المنطقة كانت فى صالح الخليفة الرابع الامام على بن أبى طالب ، ثم لجأ اليها الخوارج حيث وجدوا فيها مكانا آمنا ، ثم القرامطة والذين اتخذوا منها قاعدة ضد السلطة المركزية .. كانت البحرين آنذاك شبه نائية مع أهميتها ، تقع على طريق تجاري عالمي ومنها مصادر الحياة المطلوبة .. ثم انهزمت هذه الحركة ، وتأسست الدولة العيونية حوالى سنة ٣٧٨ هـ ثم قامت ثورة بقيادة ابن عامر ، ومن ثم فرضت الدولة الزنكية المغولية حكمها ، ثم تأسست دولة العصفوريين ، وبعد ذلك أصبحت البحرين تحت حكم امارة هرمز .

ندخل عصورا ـ نعبر عصورا ـ ومؤتمر البحرين عبر العصور ينـاقش ويحلل عن كثرة الالتباس والخلط فى اسماء المدن والبلدان والاقاليم كما يقول الدكتور على الدوى ، فاسم البحرين يطلق تارة على مدينة وتارة أخرى على جزيرة ، حيث يصبح من الصعب البت فى مدلول الاسم الواحد . اما اسم البحرين الذى تركز فى جزائر أوال فمن المرجح كما يقول الدكتور الدوى ان ذلك حدث عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) .

كانت البحرين كما يقول الاستاذ أحمد العنانى ذات علاقات متشابكة فى القرن السابع الهجري (١٤ ميلادي) بكل من هرمز من جهة ، وبالاحساء من جهة اخرى بالنظر لتحركات ونفوذ أسرة الجبوريين بسبب الفوضى التى عمت العراق وايران والشام ، حيث توسعت هذه العائلة على حساب امارة هرمز .. الا ان هذا الامر انحسم على أساس ان تكون (الصلاحيات الادارية للجبور فى البحرين) على أن يتعهدوا بدفع بعض الايرادات لهرمز .

وفى عام ١٥٢١ ميلادية وصل البرتغاليين الى البحرين ، وقـد تبين ان المدافعين العرب بقيادة الشيخ مقرن الجبورى كانوا قد استعدوا للقتال ، وهذه أول حرب لهم مع الاوربيين المعتمدين على المدفعية البحرية وكـان الحر بالغ الشدة بحيث أخطر الفريقان للتوقف عن القتال ساعة الظهيرة ، وفى المساء عاود البرتغاليون الهجوم وأصابوا الشيخ مقرن بطلق نارى وفى ساعة العتمة حقق البرتغاليون النصر فى يوم من منتصف يونيو ١٥٢١ .

وفى عـام ١٥٢٩ فى شهر سبتمبـر أشـد الشهـور حـرارة أتت الحملة البرتغالية تطلق مدافعها ارهابا لشعب البحرين ، الا ان الحاكم كان قد أعد علمين احدهما ابيض والآخر أحمر كانما يقول انه جاهز للسلام ان شـاء البرتغاليون وللحرب اذا اختاروا الحرب . الا ان هذه الحملة قد فشلت وأن الحكم البرتغالى استمر حتى طردوا نهائيا فى عام ١٦٠٢ عندما قتل حاكم البحرين المعين من قبل حاكم هرمز أحد التجار البحرينيين واستـولى على ثروته وقام أخ القتيل بالتودد للحاكم حتى وجد الفرصة سانحة فقتله وأعلن نفسه حاكما على البحرين .

نترك عصرا وندخل الآخـر ، والجزيـرة الصغيرة لاتـزال تلعب دورها المتميز على هذه الخارطة .. يأتى الاتراك ـ يخرج الفرس ـ يدخل الانجليز ـ وسبحان الله تتداول الايـام بين النـاس والدول ، ومؤتمـر البحرين عبـر العصور ناقش ضمن أربعة مجموعات الآثار والتاريخ لعهد ما قبل الاسلام ، والعهد الاسلامي فى البحرين ، وتاريخ البحرين الحديث وتجديد وصيانـة

الآثار ومن ضمن البحوث التى ستنشر كاملة فيما بعد ابحاث عدة تتراوح ما بين : الابتكار والتقليد فى السيرة الثقافية فى العصر الحجرى مرورا بغموض الانسان فى البحرين القديمة وامرؤ القيس وعصر ما قبل التاريـخ والنقود والتجارة والثقافة البحرينية القديمة .. وأرض دلمون المقدسة فى حوالى أكثر من ٤٥ بحثا عن المرحلة الدلـمونية و٥٢ بحثـا عن القرون التـالية نـدخل عصورا بعد عصورا ، والبحرين تؤصل وجودها في كل عصر . والسبب الجغرافيا والتاريخ والناس .

كما النفط ..

كان اللؤلؤ ..

هل نحن شعب مبتكر ..

ام شعب يذهل من الصدمات ؟!

النفط كان اللؤلؤ ، وكما اللؤلؤ سيكون النفط ، والكتابة عن اللؤلؤ لا تهدف الى البحث عن تاريخ الغوص ، والتطرق الى النفط لا يهدف الى البحث عن صناعة النفط ، فالمسألة اعمق من الغوص ومن النفط .

المسألة باختصار شديد هى الوصول الى لب المشكلة الوصول الى طبيعة حياتنا ، واقعنا وتفكيرنا هل نحن شعب نتجاوب مع هذا الواقع ونتفاعل معه وفيه . الغوص نموذج عمل انتهى ، والنفط مشكلة لايزال فى امكاننا التعامل معها ، فالوقت لم يفت بعد ، والاسئلة كثيرة .. هل نحن شعب مبتكر .. ام شعب يحب التقليد ؟! هل نحن شعب يقفز على مشاكله ويتغلب عليها ويستشرف المستقبل ؟! ام يذهل من الصدمات والنكسات ويخضع لها .. لماذا ؟! ولماذا ؟ وايضا لماذا ؟! ولنقرأ .

فى احد ايام عام ١٩٨٢ ، جاء الى البحرين تاجر يابانى يحمل حقيبته المليئة باللالىء الثمينة ، ويحلم بتسويقها فى البحرين درة الخليج .
لم يعلم التاجر اليابانى وهو ينزل من الطائرة بما سيواجهه فى مطار البحرين ، ولم يعلم بأن هناك ثأرا قديما بين اليابان وعرب الخليج عمره اكثر من خمسين عاما .

فى المطار حجز موظف الجمارك حقيبة اللآلىء الثمينة ، وهو يقول للتاجر اليابانى بكل لطف : ممنوع ادخال اللؤلؤ (الجابانى) ياسيدى .
فتح التاجر الياباني فمه دهشه وقال : إنها لآلىء يابانية حقيقية ولم أدخلها بالتهريب !
رد رجل الجمارك : لأنها لآلىء (جابانية) فهى ممنوعة .. القانون يقول ذلك ياسيدى .
وواصل مفتش الجمارك حديثه بكل تهذيب .. تفضل بدخول البحرين على الرحب والسعة .. وستسترجع حقيبة اللآلىء عندما تغادر البلاد .

ركب التاجر اليابانى عربة الاجرة فى طريقه الى الفندق مذهولا من هذا البلد الذى يمنع دخول اللؤلؤ اليابانى المشهور الذى غزا العالم كله .. بينما لاتزال هذه الجزيرة الصغيرة تمنع دخوله بشدة .. وتعتبره جريمة تعادل جريمة تهريب المخدرات .

وبلغة انجليزية (مكسرة) سأل سائق التاكسى العجوز قائلا : لماذا لا تسمح دولة البحرين بادخال اللؤلؤ اليابانى اليها ؟
تنهد السائق : الا ترى حالى ياسيدى .. بعدما كنت سيد الغواصين .. ها أنذا بفضل لؤلؤكم اصبحت سائق تاكسى !
هز التاجر اليابانى رأسه .. لانه لم يفقه المعنى والقصة الطويلة الدامية . لكن ما علينا .. لنعد الى البدايات ونستكشف الحكاية من أولها .

اللؤلؤ كان سيد المجوهرات وسيد الاساطير فمنذ ٤٠٠٠ الاف سنة كان الاشوريون يجوبون البحر الى دلمون للبحث عن عيـون السمك (اللؤلؤ) ، وكانت اللؤلؤة زهرة الخلود فى ملحمة جلجامش ، عندما اختطفتها (الحية) وغاصت فى اليم . وكانت اللآلىء أية فى القرآن الكريم (مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان ، فباى الاء ربكمـا تكذبـان . يخرج منهمـا اللؤلؤ والمرجان ، فبأى الاء ربكما تكذبان) .

المهم لنعد الى الواقع الحديث ، والواقع يقول اشياء كثيرة .. اشياء تطن العين .. اذ تذكرنا هذه الاشياء بواقع النفط الحالى .. يقول شارلز بلجريف فى كتابه (بيرسونال كولومن) [١] :

كان ثراء البحرينيين ـ ان لم نقل وجودهم ـ يعتمد على تجارة اللؤلؤ ، فاذا ما جاء الصيد وفيرا او ثمينا ، وأسعار اللؤلؤ مرتفعة ، كان اصحاب السفن والغواصون وتجار اللؤلؤ يحصلون على المال الوفير الذى يجد طريقه الى السوق مما يدعو التجار الى استيراد المزيد من البضائع والحاجيات التى تستحصل الحكومة عن طريقها المزيد من ضرائب الجمارك ـ مصدر الدخل الاساسى للحكومة فى ذلك الحين ، ولقد كان اللؤلؤ صناعة رائجة مزدهـرة تضمن العمل لما لا يقل عن عشرين الفا من الذكور .

وكانت الكويت هى الاخرى مركزا عظيما للغوص بحثا عن اللؤلؤ ، وكان فيها عام ١٩١١ ثمانمائة مركب يعمل على ظهورها (حوالى) ٢٠,٠٠٠ الف رجل يعملون فى مجال الغوص ولم يكن هؤلاء مواطنون كويتيون ، فقد جاءوا من كل حدب وصوب [٢] .

لم يكن صيد اللؤلؤ اهم صناعات الخليج ولم يكن فقط مصدر الربـح الرئيسى او الوحيد لسكان الساحل العربى بل كان نظاما اجتماعيا متكاملا . او كما يقول احد الكتاب الخليجيين [٣] المحرك الاكبر للحياة الخليجية فى تلك السنين (وياللمفارقة .. هل مازلنا نتذكـر بأن البتـرول هو ايضـا المصدر الرئيسى والوحيد والمحرك الاكبر ؟!) .

وكأن احدهم يتنبأ عن واقع الحال فى بداية القرن بقوله [٤] : لو لم تكن موارد اللؤلؤ لانهارت تجارة الكويت الى حد كبير، ولنقصت تجارة البحرين الى خمس حجمها الحالى ، ولما قامت موانىء عمان المتصالح ، اذ ان اللؤلؤ هو عماد حياتها الوحيد ومصدر قوتها الشرائية .. وان السفن المشتغلة فى هذه

الصناعة حوالى ٤٥٠٠ سفينة ، وان المشتغلين فيها شخصيا يزيدون عن ٧٤٠٠٠ الف نفس ، ولتقدير اهمية هذه المصايد، يجب ان لا يغيب عن البال افراد عائلات المشتغلين بها ورجال المال بين كبير وصغير .

لقد قدرت قيمة اللؤلؤ المصدر من الخليج سنة ١٨٣٣ بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠ الف جنيه استرليني (ايام ما كان الجنيه الاسترليني استرليني !) ووصلت في سنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ الى مبلغ ١,٤٣٤,٣٩٩ مليون جنيه (٥) .

في تلك الايام .. «أيام العز» كانت المنامة ولنجة حتى سنة ١٩٠٢ هما اهم المراكز التجارية للؤلؤ في منطقة الخليج ، وكانت المنامة مركزا للمنطقة الوسطى من الخليج ، وكان كبار التجار الاجانب لديهم محلات في البحرين لشراء اللؤلؤ .. بينما كانت لنجة مركزا للقسم الاسفل منه .

وكما النفط كان اللؤلؤ ، وكما اللؤلؤ سيكون النفط . في نهاية موسم الغوص يرد الى البحرين كثير من تجار اللؤلؤ الاجانب ، واغلبهم من الهنود الذين يقومون بشراء كميات كبيرة من اللآلىء ، وقد استمرت هذه الزيارات من تجار اللؤلؤ الاجانب الى البحرين ازمنة طويلة كان ايراد اللؤلؤ فيها كبيرا ومغريا ، وكانت اسعاره ضاربة في الارتفاع في اسواق الهند واوروبا (الا يذكرنا هذا ايضا بارتفاع اسعار النفط فيما بعد وسقوطه الذى كان مدويا؟!)

وكانت بومباى مركزا مهما لتجارة اللؤلؤ (الله يذكر بالخير روتردام مركز تجارة النفط الحالية) .

وكان معظم تجار اللؤلؤ من الاجانب الذين يتعاطون تجارته . حيث كان التجار العرب يبيعون لآلئهم على التجار الاجانب سواء في اسواق بومبى او في البحرين، وكان هؤلاء التجار الوسطاء يقومون بدورهم ببيع اللؤلؤ في اسواق اوروبا وخاصة في باريس ولندن (مرة اخرى الا يذكرنا هذا الامر بالشركات الاحتكارية النفطية التى تشترى البترول خاما ؟!) وليس هذا الامر فقط .. بل كانت صناعة اللؤلؤ بأكملها تجرى في الهند ..

وكما كان النفط كان اللؤلؤ وكما اللؤلؤ سيكون النفط . لقد اثارت هذه الثروة في تلك الايام انظار الدول الطامعة في البحرين وبقية دول الخليج .

وكما تبحث دول العالم الان عن بدائل للنفط بحثوا عن بدائل للؤلؤ وقد قام عالم فرنسى يدعى (جاكوين) (٧) في منتصف القرن السابع عشر بالبحث عن بديل للؤلؤ الطبيعى بسبب ارتفاع اسعاره ، وحتى يصبح في متناول اصحاب الدخل المحدود !

استطاع هذا العالم بعد عدة تجارب العثور على المادة البراقة التى يتميز بها اللؤلؤ الطبيعى من الاسماك الصغيرة التى تعيش على المياه العذبة واستخرج من هذه المادة البراقة محلولا ، ثم طلى به كرات صغيرة من الشمع ، وكانت النتيجة مدهشة ، فقد حصل على كرات لؤلؤية قريبة الشبه بحبات اللؤلؤ الطبيعى ، وبعد (جاكوين) هذا اكتشف بعض العلماء بأن هذه المادة البراقة لم تكن سوى مادة (الجوانين) الموجودة داخل جسد السمكة على شكل بلورات .

اما الانجليز فلم يكونوا كعادتهم بعيدين عن معرفة كيفية تكون اللؤلؤ .. ليس كصناعة وتجارة فقط (انظر كتاب دليل الخليج) (٨) بل حتى عن طرق تكونه ، ففى تقرير عن مصايد قواقع اللؤلؤ فى خليج منعار فى سيلان كتب البروفيسور (و أ هيرومان) ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦ مايلى (٩) :

ان تكون اللؤلؤ فى القوقعة ليس امرا عاديا او دليلا على صحتها ، بل على العكس هو حادث غير عادى وحالة مرضية .

وكما النفط كان اللؤلؤ وكما اللؤلؤ سيكون النفط وكالعادة أثيرت مسألة المشاركة فى لؤلؤ الخليج لاول مرة فى عام ١٨٥٧ عندما ابدى (السادة ج وو واطسن) من بمباى رغبتهم فى القيام بأعمال صيد اللؤلؤ الا ان المقيم البريطانى (فيلكس جونز) رفض خوفا من حدوث (قلاقل وعدوان) .

وفى موسم ١٨٦٢ ابحرت باخرة رأسمالى هندى (دون اذن رسمى) وعليها ثلاثة من الاوربيين مع الات غوص لتزاول العمل ، الا ان القائم بأعمال المقيم السياسى اعتبر الامر خطيرا فأصدر أمرا باحضار السفينة الى ميناء بوشهر الايرانى .

وكانت توصية الكولونيل كمبول المقيم السياسى فى بغداد (بأن تعتبر حكومة الهند الخليج منطقة مقفلة لصيد اللؤلؤ بالنسبة لاى افراد قادمين من خارج حدوده مهما كانت جنسياتهم ، ومثل هذا الاجراء كفيل بمنع الاوربيين على الاقل من التدخل فى هذه المغاصات) الا ان هذا الامر لم يؤخذ به باعتبار ان اعلان منطقة الخليج مقفلة يعرض بريطانيا الى منازعات مع الدول الاوربية والامريكية وان اتخاذ سياسة التحفظ فى الامور هو الافضل .

سبحة المشاريع

وكرت سبحة المشاريع للبحث عن اللؤلؤ فمن مشروع مدحت باشا التركى سنة ١٨٧٢ حتى ازدياد مظاهر الاهتمام الاجنبى بصيد اللؤلؤ ومن خلال تسلل يخت بلجيكى لصيد اللؤلؤ مرورا بمشاريع اصحاب رؤوس الاموال

الالمان بالتعاون مع الباب العالى ، لاحتكار مغاصات اللؤلؤ مع استعمال الوسائل العلمية .. وانتهاء بالفرنسيين فى عام ١٩٠٣ ومحاولاتهم لجس النبض فى امكانية صيد اللؤلؤ .

الا ان من الملاحظ ان بريطانيا وقفت موقفا مضادا على طول الخط من مختلف هذ المشاريع ليس حبا فى الحفاظ على الاقتصاد الخليجى ، بل من اجل عدم فتح الباب للدول الاخرى لدخول منطقة الخليج من خلال هذا المنفذ التجارى .. واتباع سياسة العزل .

كل هذا كان يجرى من حولنا ، ونحن كنا نحلم بالاساطير ، ونعيش على الاساطير .. فمن القزوينى الذى يقول فى كتابه عجائب المخلوقات (ان الرياح وقت الربيع تحمل الى بحر فارس رشاشات من اوقانيوس ، وفيه ماء شبيه بالزئبق لزج مثل الغراء فيتولد منه الدر ، بأن تقع تلك الرشاشات فى محل الصدف ، كما يلقم الرحم المنى ، فربما وقعت فيه قطرة كبيرة فتنعقد درا كبيرا ، وربما تقع رشاشات صغيرة فتنعقد منه اجزاء صغار من الدر) .

وهناك اسطورة اخرى ، هى جميلة .. الا انها اسطورة.. تحكى عن ليالى الخليج القمرية حيث تصعد المحارة الى سطح البحر .. وتفتح صدفتها ، لتسقط فيها حبة ندى .. تتحول فيما بعد الى لؤلؤة حسب حجم حبة المطر .

الاساطير كثيرة ، متوارثة، جميلة ، وهالة جميلة مقدسة تحيط باللؤلؤ ..

فاسطورة تعزو سبب جمال وغنى لآلىء البحرين الى ينابيع المياه العذبة المتفجرة فى قاع البحر بالقرب من حواجز المحار .. واسطورة اخرى تقول بان القوقعة عندما تريد ان تحمل لؤلؤة قدمت نفسها لمداعبات المياه العذبة حيث تمتص منها نقطة صافية .. وهذه النقطة يرعاها الحب ويغذيها حتى تصبح مع الوقت الحلية الكاملة التى تنتزعها بقساوة من بطن امها المثخنة بالجراح .. واساطير .. واساطير لا تنتهى الا انها تبقى اساطير والعالم من حولنا يعمل ويبحث وينقب ويخطط ويدرس .. ونحن يا غافل لك الله .. وعلى فكرة فالكلية الجامعية فى البحرين الغت فى عام ١٩٨٣ ميزانية البحوث والدراسات !

وشتان بين ما ذهبت اليه اساطيرنا وبين الحقيقة العلمية التى اوردها الدكتور السيلانى الذى يقول عن اللؤلؤة :

وسبب تكوينها ثابت لا يختلف ، وعادة هى تسرب حشرة طفيلية صغيرة جدا ، هى يرقة بيضاء كروية غير شفافة لدودة شريطية ، وهذه الدودة من فصيلة التترارهنكس (...) وعندما تدخل الدودة جسم القوقعة

يحيط بها كيس يكون احيانا مكونا من انسجة متلاحمة، وفى احيان اخرى من غلاف مخاطى ، ويتكون اللؤلؤ عادة فى احدى هذه الحويصلات من المادة اللؤلؤية التى تفرزها الجدران الداخلية للحويصلات وتقترب حول اليرقـه الطفيلية فى مركز الحويصلة . والجـدير بـالذكر بـأن اول من نال شـرف اكتشاف الربط بين تكوين اللؤلؤ وبين الطفيليات الدودية هو الدكتور اف كيلارت من سيلان الذى توفى عام ١٨٥٩ .. الا ان من واصل عناء البحث بعد ذلك شخص اخر .. وعلى العموم هو كالعادة ليس من العرب .. وقصة هذا الشخص قصة اخرى ..

وكانت بوادر العاصفة تتجمع .. وقد اكتمل تبلورها طوال اكثر من ٥٠ عاما .. وكان اسم العاصفة اللؤلؤ اليابانى .

والذى اطلقها من قمقمها رجل يدعى ميكوموتو .

لم يكن هذا الرجل (١٠) اصلا صيادا ولا من المشتغلين باللؤلؤ . كان والده يبيع الارز المسلوق ... واشتغل ميكوموتو بصيد الاسمـاك واشتغل بالغوص وصيد اللؤلؤ . وكانت هناك فكرة فى رأسه تقلقه .. ففى يوم ذهب الى احد اصحابه من العاملين فى قسم (الاحياء المائية) وسأله : لماذا يوجـد اللؤلؤ فى بعض القواقع .. ولماذا لا يوجد فى بعضها الاخر ؟!

رد عليه صديقه العامل بالاحياء المائية قائلا : بأن سبب وجود اللؤلؤ هو ان بعض الطفيليات الموجودة فى البحر تتسلل الى داخل القوقعـة ويخرج لحمها الناعم الضعيف . اما القوقعة فانها تدافع عن نفسها بأن تعزل هذا الجسم الغريب بفرز مادة جيرية فوسفورية هى اللؤلؤ التى يتم تكوينها فى عدة سنوات .

امن ميكوموتو بانه يفكر تفكيرا سليما وانه لابد ان يدخل جسما غريبا فى كل قوقعة يجدها وان يحتفظ بهذه القوقعة وينتظر حتى تنمو .. سنة واثنتين وثلاثا ، فاذا كانت القواقع تفرز المادة اللؤلؤية فى صبر .. فليصبر هو كما تصبر القواقع .

زرع ميكوموتو القواقع وانتظر .. وبعد سنتين فتحها فوجدها قد ماتت جميعا .. وحاول من جديد واستخدم حوالى عشـرة الاف قوقعـة ، الا ان العواصف حطمتها .. وجرب ثالثة فزحفت على القواقع مواد طفيلية اهلكتها جميعا .. واتهمه الناس بالفشل والجنون .. الا انه تعلم من التجارب التى

استغرقت ١٥ عاما سبب موت القواقع .. حيث عرف ان انخفاض درجة حرارة الماء الى اقل من ٧ درجات هو السبب وانه يجب نقل القواقع من الماء البارد الى الماء الدافىء .. وتعلم بأن الطفيليات التى تغطى فتحات القواقع تخنقها وتعلم .. وتعلم ..

التوقعات والنتائج

بعد سنتين اخريين من التجارب وفى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٥ اكتشف اول لؤلؤة مزروعة فى اليابان .. لقد نجح ميكوموتو وظهر فى العالم اول لؤلؤة من صنع الانسان . أو على الاصح من كيد الانسان بالطبيعة .. الا ان اللؤلؤة لم تكن كروية الشكل .. وفكر .. وفكر .. وعرف ان السبب يتركز فى وضع البذرة فى المكان المناسب . أى بين المعدة والكبد .

وبدأ الانتاج على نطاق واسع .. الانتاج بعشرين مليون قوقعة تنتجها مصانعه كل سنة واستطاع فيما بعد التحكم فى حجم اللؤلؤ وفى شكله .. وبلغ عدد العمال فى شركته ١٨٠ الف عامل .

وفى عام ١٩٣٩ اشترك ميكوموتو فى المعرض الدولى الذى أقيم فى امريكا بتمثال لناقوس الحرية استخدم فيه ١٣ الف لؤلؤة و٣٦٦ جوهرة ومات ميكوموتو سنة ١٩٥٤ عن عمر يناهز ٩٦ عاما .

الذين زاروا ميكوموتو فى منزله دهشوا كيف ينام ملك اللؤلؤ على الارض ، وكيف انه لم يغير طعامه ، ولم يغير عاداته وكيف انه ينزل الى البحر ويستحم فى الماء البارد و .. و

وعندما ذهب ميكوموتو الى امريكا للدعاية لهذا اللؤلؤ .. وقابل المخترع الامريكى اديسون الذى اخترع المصباح الكهربائى قال له المخترع الامريكى : انك حققت معجزة علمية .

فرد عليه ميكوموتو : انت أضأت العالم وانا أضأت اعناق النساء . واذا كنت فى دنيا الاختراع قمرا كاملا ، فأنا أحد النجوم التى ليس لها عدد .

وعندما سمع اديسون هذه العبارة بكى . فقال له ميكوموتو وهو ينظر الى دموع المخترع الكبير : لقد رأيت اعظم لؤلؤتين على خد انسان ..

الا ان ميكوموتو لم ينتبه الى دموع اخرى ، دموع اهالى الخليج التى اصابتهم انتصاراته بضربة فى صميم الاقتصاد والمجتمع و .. ولم يشاهد دموعهم .. دموع الألم وتدهور معيشة الآلاف من العائلات .

وكما كان اللؤلؤ ، سيكون النفط . وانتكست هـذه الصناعـة الرئيسية والوحيدة فى الخليج انذاك نتيجة للأزمة العالمية الاقتصادية من جهة (أليس التضخم العالمى الحالى مشكلة ؟!) وظهور اللؤلؤ (الجابانى) المزروع الذى سوق بشكل تجارى منذ العشرينات ، الذى خفض مشتريات اللؤلؤ الطبيعى بسبب بيعه بأسعار تقل بكثير عن أسعار اللؤلؤ الطبيعى مما كان له ابلغ الاثر فى تدهور هذه الصناعة العريقة ، اذ أخذ اللؤلؤ اليابانى يغزو اسواق اوربا ويباع بحوالى ⅛ اسعار اللؤلؤ الطبيعى (١١) .

ولا ننسى ان هناك عوامـل كثيرة مسـاعدة سـاهمت فى تحطيم طبيعـة العلاقات الانتاجية السـائدة فى صنـاعة الغـوص ، كما ان كثيـرا ما يتم استخراج هذا اللؤلؤ دون حساب وعدم اتفاق تجار اللؤلؤ على سعر معين لانواع اللؤلؤ وعدم اتفاقهم على سيـاسة معينـة (١٢) (الله يذكـر الأوبك بالخير ؟!) فلما سنحت الفرصة فيما بعد لكى يتحرر الغواصون من الغوص هجروه الى صناعة النفط .

وتغير الحال .. سبحان مغير الاحوال .. فأصبح الحال لا يسر الحال .. واصبحت الكويت مثلا تتوقف الحياة فيها على بيع تاجر كويتى واحد للؤلؤ فى الهند .. فاذا باع التاجر يستبشر الجميع .. ويعتبر الأمر عيدا سعيدا (١٣) اما النماذج القليلة التالية من الرسائل القادمة من الهند فتحكى القصة بكل وضوح (١٤) .

كانت كل الرسـائل الواردة الى الخليـج فى تلك الايام تحمـل العبارات اليائسة وان تغيرت الكلمات فيها .. المهم .. ان السلطات المحلية لم تقف امام الغزو اليابانى مكتوفة الايدى فقد اصدرت كثيرا من القوانين .. قوانين المنع (١٥) .

وهكذا كان رد الفعل الاول هو صدور قوانين المنع ضد اللؤلؤ (الجابانى) وصحيح ان هذه الخطوة كانت رد فعل .. الا انه ليس من الخطأ اصدار مثل هذه القوانين احيانا ولكن ماذا بعد ذلك ؟ كيف تعاملنا مع المشكلة .. كيف فكرنا بها .. كيف عالجناها .. كيف . وأين .. ومتى .. ولماذا .. أسئلة كثيرة نحاول الاجابة عليها ..

جريمة التعاطى والحيازة باللؤلؤ الجابانى

... تحذر عموم النـاس القاطنـين البحرين احتـرازا عن اشتباه اللؤلؤ المصنوع الممنوع دخوله فى البحرين بتاتا ..

٢٤ ربيع الاول ١٣٤٧

... نعلن للعموم انه :

١ ـ ممنوع التوريد والتعاطى والحيازة باللؤلؤ الجابانى فى بلاد البحرين .

٢ ـ ممنوع ايضا المساعدة على ارتكاب احدى الجرائم المتقدمة وكل مخالف يعرض نفسه للعقاب .

٣ مايو ١٩٣٠

. ... نذكركم ان جلب اللؤلؤ المعمول فى بلاد الجابان وغيرها من البلدان ممنوع بتاتا دخوله البحرين لكى لا يقع اغتشاش فى اللؤلؤ المتداول فى ايدى تجار البحرين ..

٤ ذو القعدة ١٣٤٩

عقوبة من الله

وبعد ان كسد سوق الهند قال تجارنا الكرام لنذهب الى باريس مباشرة فربما نوفق بالبيع فى باريس .. وباريس كانت سوقا مهما لبيع اللؤلؤ حيث يقال انه كان يوجـد فيها سـوق خاص لبيـع اللؤلؤ الا ان النتيجة كـانت واحدة .. واليكم بعض النماذج من باريس .

***

اخبار السوق .. نرجو كرم المولى ان يبدل الحال وان يبعث للمسلمـين النصيب الطيب .. السوق كثير ايكدر .

باريس ٧ مايو ١٩٣٠

اخبار باريس دونيه . لأن ما هنا مشتريه اجانب واهل باريس مشتراهم ضعيف «...» ويا أخى مالى كثير مختل .. املى ابيعه بكل ما يكون .

باريس ١٦ مايو ١٩٣١

ذكرتم عن حالة الغواويص وعن حالة اهل السوق فيا أخى هذه عقوبة من الله . انظر اهل باريس متوقفين عن المشرا .

باريس ١٤ يونيو ١٩٣١

المراجع :

١ ـ نقلا عن كتاب (مجتمع البحرين واثر الهجرة الخارجية) فيصل الزيانى الطبعة الأولى ١٩٧٧ .
٢ ـ مذكرات د . ستانلى ميلر : الكويت قبل النفط ترجمة الدكتور محمد غانم الرميحى ، باسم سرحان .. غير متداول نقلا عن دراسة للدكتور محمد الرميحى فى ندوة الانسان والمجتمع .
٣ ـ لمحات من الخليج العربى د . محمد جابر الانصارى .
٤ ـ ج . ج . لوريمر فى كتاب دليل الخليج/ القسم التاريخى الجزء السادس .
٥ ـ صناعة الغوص ، عبدالله خليفة الشملان/ ايداع ٢٠٥٨/ ٧٥ .
٦ ـ سيف مرزوق ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ/ الجزء الثانى الطبعة الاولى ١٩٧٨ .
٧ ـ من تراث البحرين الشعبى/ صلاح المدنى ، كريم العريض مطبعة سيما/ بيروت .
٨ ـ دليل الخليج/ ١٤ مجلد كان تقريرا سريا مرفوعا للحكومة البريطانية وضع عام ١٩٥٥ لكى تضع بريطانيا سياستها فى المنطقة وهو مرجع شامل حول المنطقة .
٩ ـ نفس المصدر السابق .
١٠ ـ حول كوموتو وحياته ثم الاستفادة من كتاب انيس منصور حول العالم فى ٢٠٠ يوم/ الطبعة الحادية عشرة .
١١ ـ سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ .
١٢ ـ نفس المرجع .
١٣ ـ نفس المرجع .
١٤ ـ نفس المرجع .
١٥ ـ من تراث البحرين الشعبى .

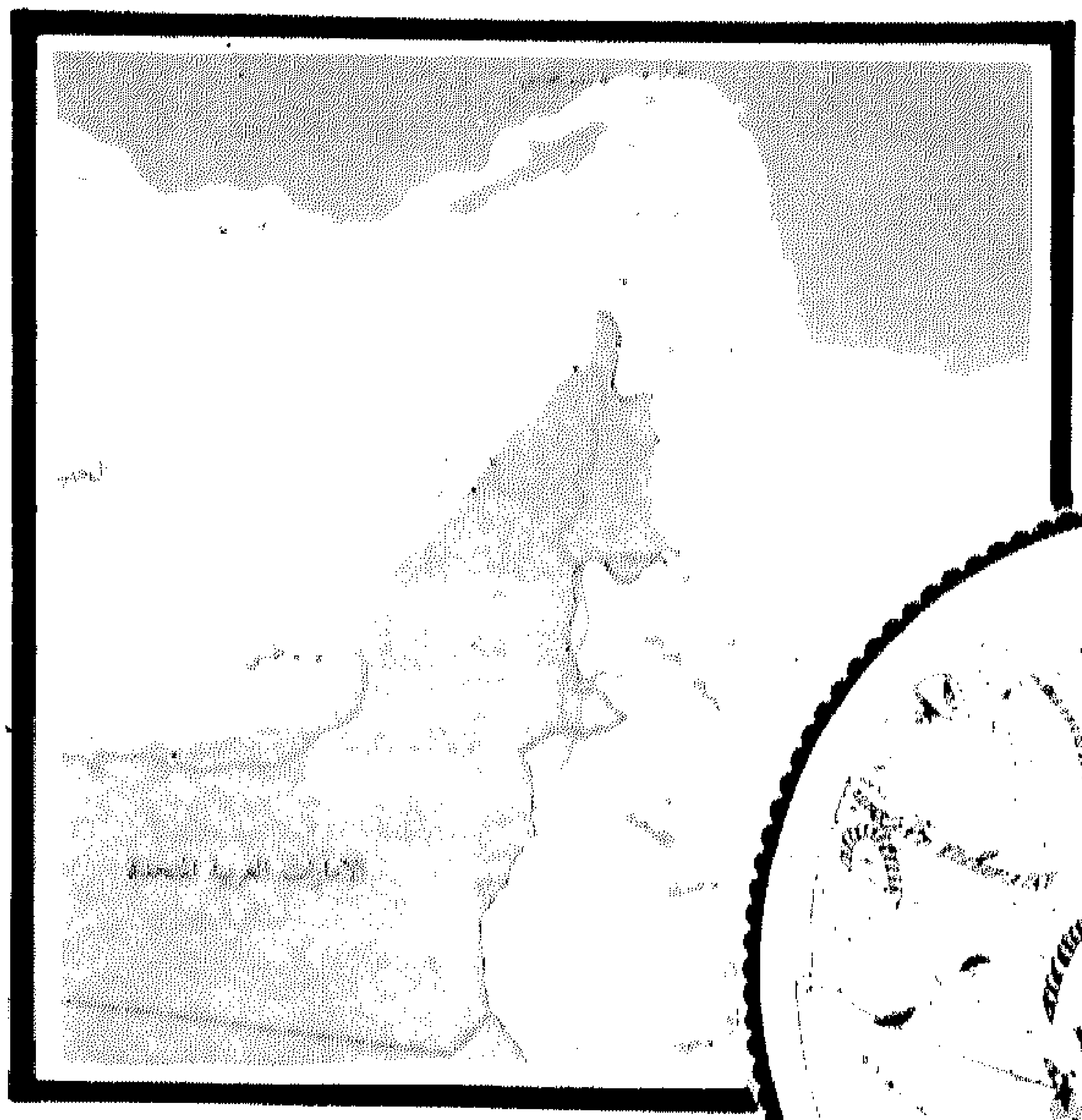

مملكة هرمز.. الفقاعة الذهبية
ارتفاع وسقوط مملكة هرمز

اذا كان العالم خاتما ذهبيا ، فهرمز جوهرته النفيسة

هناك ثلاثة أماكن فى الهند ، هى بمثابة أسواق لكل تجارة البضائع الرائجة فى ذلك الجزء من العالم والمفاتيح الرئيسية لها ، وأولها ملقا باعتبارها مخرج مضايق سنغافورا ، والثانية هى عدن فى مدخل ومخرج مضايق البحر الاحمر ، والثالثة هى هرمز فى مدخل ومخرج مضايق الخليج .. وان مدينة هرمز هذه ، هى فى اعتقادي اهمها جميعا .

الفونسو البوكيرك
الفاتح البرتغالي المشهور

وبين هذين القولين تكمن مأساة هرمز .. ولنقرأ :

هرمز كانت فى البداية فى القرن العاشر الميناء البحرى لتجارة منطقة كرمان وسيستان ، ولكن لم يكن لها اهمية فى التجارة العالمية ، وقد ذكرت «النيله» باعتبارها اهم منتوج فى المنطقة .

هرمز لم تبلغ الأهمية التى بلغتها هرمز الا بعد الفتح الاسلامي ، كانت خيولها تصدر الى الهند ، وظلت على هذا الحال حتى القرن الخامس عشر ، حيث يشير اليها الرحالة الايطالى الشهير ماركو بولو بقوله ان هرمز (مدينة عظيمة ونبيلة على البحر) . ويقول ماركو بولو .. فى هذه البلاد اعداد هائلة من الخيول المطهمة ، والناس يأخذونها الى الهند للبيع لأنها خيل غالية الثمن .. وهنا يوجد أيضا أجود حمير فى العالم لانها كبيرة وسريعة وتمتاز بخفة نادرة .

ويواصل ماركو بولو حديثه فى وصف المدينة : حين تأتى الى البحر المحيط ، وعلى الشاطىء تجد مدينة ذات مرفأ يقال لها هرمز ، والتجار يأتون الى هناك من الهند بسفن محملة بالتوابل والاحجار الكريمة واللؤلؤ وأقمشة الحرير والذهب والعاج ، وبضائع اخرى كثيرة حيث يبيعونها لتجار هرمز ، وهؤلاء بدورهم يحملون هذه الاشياء الى جميع انحاء العالم لبيعها ثانية .

اما الادريسى الجغرافى العربى الشهير فيقول عنها : هرمز هى السوق الرئيسية لكرمان ، وهى مدينة واسعة حسنة البنيان .. وهرمز مبنية على ضفاف خور يقال له هير حيز مشتق من الخليج وتصل السفن للمدينة بواسطة هذا القنال .

وابتداء من حوالى سنة ١١٠٠م كان لهرمز حكام من العرب ، وكان مؤسس هذا الحكم يدعى محمد وهو أمير عربى عبر الخليج من اليمن وكون نفسه هناك ، ولكن التاريخ هنا غير مؤكد ، الا ان أول اسم لحاكم من هذه السلالة يظهر .. وهو الحاكم الثانى عشر ، وفى خلال حكم الامير الخامس عشر فى سنة ١٣٠١ ، كانت هرمز القديمة على البر قد ناوشتها الغارات الوحشية المتكررة من جانب الفرسان التتر ، لدرجة ان الامير وشعبه هجروا مدينتهم فى البر الاصلى وانتقلوا الى جزيرة قشم .. ومن ثم انتقلوا الى جزيرة جيرون الجديدة التى تقع وسط البحر ويفصل بينها قنال عرضه ثلاثة فراسخ وسموها هرمز . ثم تحولت الى امبراطورية خليجية مستقلة .

ويصف لنا ابن بطوطة الرحالة العربى الشهير مدينة هرمز الجديدة بقوله هى مدينة واسعة وفاخرة ولها سوق مجهزة احسن تجهيز وهى بمثابة مستودع بضائع للهند والسند .

ويواصل ابن بطوطة حديثه قائلا : وماء الشرب غالى الثمن فى هذه الجزيرة ، وهناك صهاريج وخزانات صناعية لجمع ماء المطر ، وهى موضوعة على مسافة معينة من المدينة ، والناس يذهبون للاستسقاء منها بآنية جلدية كبيرة (القرب) حيث يملئونها ويحملونها على ظهورهم حتى البر ثم يحملونها على القوارب ومن ثم يأتون بها الى المدينة .

وتتطور هرمز حيث يصفها أحد الرحالة الغربيين بقوله : أصبحت هرمز عاصمة لامبراطورية اشتملت على جانب كبير من شبه جزيرة العرب من ناحية وعلى فارس من ناحية اخرى ، وفى أيام وصول التجار الاجانب كانت تبدو بمنظر أفخر وأجمل من أية مدينة اخرى فى الشرق ، وكان الناس من جميع انحاء المعمورة يغدون اليها يتبادلون السلع ويعقدون الصفقات التجارية فى جو من الادب والرعاية مما يندر مثله فى أى مكان تجارى اخر ، وكانت الشوارع مغطاة بالحصر وفى بعض الاماكن بالسجاجيد ، وكانت الأصص المذهبة والخزف الصيني المليء بالنباتات المزهرة أو الأزهار المعطرة تزين بيوتهم .

قد يعجب البعض من تمكن مؤسسة سياسية محدودة الحجم فى جزيرة بركانية ضئيلة وقاحلة كهرمز من مد نفوذها على مختلف مناطق الخليج ، ولكن هرمز لم تكن بدعا فمن قبلها كانت سائر المدن التجارية كقرطاجنة وتدمر والبتراء تمد نفوذها على مساحات شاسعة بفضل المال الذى يمكنها من تجييش الجيوش وتكثير الاتباع والموالين ، وفى حالة هرمز فان المعابر البحرية والمحطات والجزر لا تزال لها ما للحياة نفسها من أهمية ، فلو انغلق المضيق فمعناه الموت المحقق لهرمز .

ظلت مدينة هرمز لمئتى عام تتمتع بدرجة عالية من الرخاء وامتدت سلطتها على طول جانبى الخليج حتى البصرة ، وفى سنة ١٥٠٣ أى قبل مجيء البرتغاليين بقليل يصفها مسافر غربى قائلا : جئنا الى مدينة تدعى هرمز ، بعيدة جدا ، وهى لا ثانية لها فى الموقع الممتاز وكثرة اللآلىء ، ويرى أحيانا ما يقرب من ثلاثمائة سفينة وغيرها من أنواع السفن التى تأتى الى هناك من أماكن بعيدة وبلاد عدة ، ويوجد هنا حوالى أربعمائة تاجر ووكيل .

وتصبح مملكة هرمز مطمعا للدول الاستعمارية ، ويقول أحد البرتغاليين فى عام ١٥١٨ .. ان المدينة ليست كبيرة على قدر ما هى ظريفة ففيها مبان عالية من الحجر والطين ذات سقوف منبسطة ونوافذ كثيرة ، وكلها مبنية بطريقة مناسبة لتمكن الهواء من ان يهب من الطوابق العالية الى المنخفضة حينما يحتاجون اليه . (هل يقصد البادجير ؟) .

ويصف رحالة اخر سكان هرمز بانهم يسيرون وهم يرتدون قمصانا قطنية بيضاء طويلة ورفيعة ، وتحتها يلبسون السراويل القطنية كما يرتدون ايضا أردية حريرية كثيرة من الانواع الثمينة وغيرها من الصوف الاحمر والبنفسجي ويتمنطقون بأحزمة يعلقون بها خناجرهم المزينة بالذهب والفضة .

ونواصل قراءة وصف السكان :

وهؤلاء الرجال اثرياء ومهذبون ذوو شهامة ويعتنون كثيرا بملابسهم ، وغذائهم الذى يتبلونه ، وكل شيء لديهم منه الكثير ، لحم الطبخ وخبز القمح والارز الممتاز ومختلف أنواع الفواكه الطازجة والمحفوظة ، والتفاح والرمان والخوخ وكميات كبيرة من المشمش والتين واللوز والعنب والبطيخ .

ويأخذ هؤلاء النبلاء وعظماء التجار معهم اينما ذهبوا فى الطرق والاماكن العامة أو الشوارع خادما يحمل برميلا صغيرا من الماء أو زجاجة ماء مزخرفة بالفضة يحملونها للعرض والظهور ولارضاء احتياجات طريقة حياتهم المرفهة .

ومدينة هرمز على الرغم من غناها المسرف ووفرة مأكولاتها من كل صنف ، فان تكاليف المعيشة بها مرتفعة ، لان كل شيء يأتيها من الخارج ، فيما عدا الملح فقط ، وحتى الماء يأتى من الخارج من الجزر الاصلية والمجاورة من أجل شربهم حيث يأتى فى قوارب معينة صغيرة ، وكل الاماكن المفتوحة مملوءة بصورة مستمرة بكل هذا الطعام .

ولكن هذه المملكة شهدت فى مطالع القرن الخامس عشر صراعات مريرة على العرش ، كذلك الصراع الذى قام به سيف الدين ضد والده حيث أرغمه على التنازل عن العرش ، كذلك ثار الامير فخر الدين حاكم ميناء قلهات العماني ضد ابنه سيف الدين ملك هرمز .

كان العالم الاوربي يرسل المستكشفين الى الشرق ، هذا الشرق المملوء

بالثروات ، وفى سنة ١٥٠٥ قرر ايمانويل الاول ملك البرتغال ان يقضى على سيطرة الدول العربية التجارية مرة واحدة وللأبد عن طريق احتلال عدن وهرمز وملقا .

كان الفاتحون الجدد يحملون السيف فى يد والانجيل فى يد اخرى ، ودون الدخول فى ملابسات كل التوجه البرتغالى فى المنطقة ، ندخل رأسا فى موضوعنا (هرمز) .

وصل الاسطول البرتغالى بقيادة الفونسو البوكريك وألقى مراسيه امام مدينة هرمز ، كان البرتغاليون فى البداية فى خشية وتردد لعظم طبيعة الامر الذى عليهم القيام به لانهم (حينما وقفوا فى النقطة التى رأى فيها البحارة البرتغاليون عظمة المدينة وعدد الرجال الفرسان المجتمعين على الشاطىء والسفن الكثيرة المرابطة فى الميناء والمجهزة بالرجال والسلاح اصيبوا بالخيبة والأسى) وفى غضون تلك الحالة النفسية جاءوا الى مقربة من القائد البوكيرك وحذروه من مغبة ما هو مقدم عليه ، لأن تلك المدينة لم تكن كغيرها من المدن التى دمرها .

لكن واقع هرمز الداخلى لم يكن كمظهرها الخارجي البراق ، حينما وصل البوكيرك الى هناك ، كان يحكم الجزيرة الامير سيف الدين الصبي ذو الاثنى عشر ، وكان تحت وصية أحد رجال البلاط ، ولدى سماعهم بوصول البوكيرك وبما صنعه فى بقية المدن التى فتحها ، أقاموا الاستعدادات ومنعوا السفن الراسية من المغادرة ، واستأجروا جنودا من المقاطعات المجاورة ، وأرسل الفونسو رسالة يطلب فيها من الملك أن يصبح تابعا لتاج البرتغال .

فأرسلوا رسولا الى البوكيرك قائلا له : سيدى القبطان لقد سمع ملك هرمز رسالتكم ويرغب ان يعرف منكم ماذا تريدون وماذا جئتم تنشدون فى هذا المرفأ ؟

فأجاب البوكيرك ، قل لملك هرمز ان الملك دون عمانويل ملك البرتغال وسيد الهند يرغب فى صداقته كثيرا ، فأرسلنى الى هذا المرفأ لأخدمه بأسطوله ، واذا كان الملك راغبا فى ان يكون تابعا له ويدفع الجزية فسأعمل سلاما معه وأخدمه فى كل شىء يأمرنى به ضد اعدائه ، واذا كان غير راغب دعه يعلم انني حتما سوف أدمر كل أسطوله الذى يضع ثقته فيه وأخذ مدينته عنوة بقوة السلاح .

وفشلت المفاوضات ..

وشن البوكيرك معركته مستعملا المدافع ، وأحرز انتصارا بحريا كاملا وأصبح ملك هرمز تابعا لتاج البرتغال ، ووافق على دفع نفقات الاسطول البرتغالى والجزية ، وأقر ترتيبا تجاريا مفاده ان البضاعة التى ترد من البرتغال تعفى من الضرائب .. بينما لا يدفع البرتغاليون ضرائب أكثر من المواطنين على البضائع التى يشترونها فى هرمز والموانىء التابعة لها ، كما منع أية سفينة هرمزية من التجارة فى الخليج من غير اذن ، وحينما أبرم اتفاق السلام بنى البرتغاليون قلعة على الجزيرة نفسها .

وهكذا ولم ينته القرن السادس عشر حتى كانت البرتغال هى الدولة الاوربية الوحيدة المحتلة فى الخليج ، واستمرت هرمز بموقعها القيادى على فم الخليج تحتل مكان الصدارة ، وتحول الحكام فيها الى مجرد دمى صورية ، وأصبح البرتغاليون هم المالكون الفعليون لهرمز باعتبار الأمر الواقع .

وفى الوقت نفسه كانت انجلترا تضع أقدامها فى الخليج من خلال البعثات التجارية ودون الدخول فى التفاصيل قام الاسطول الانجليزي فى عام ١٦١٩ وبالتحالف مع فارس التى لا تملك قوة بحرية بصدام مسلح مع الاسطول البرتغالى انتهى بانتصار الانجليز وكان من شروط الاتفاق بين الطرفين ضد هرمز كالتالى :

١ ـ ان تقسم الاسلاب مناصفة بين الايرانيين والانجليز .

٢ ـ ان يختص الانجليز بالاسرى المسيحيين ويختص الايرانيون بالمسلمين .

٣ ـ ان يؤدى الحصن الموجود فى هرمز بكل ما فيه من أسلحة وذخائر وعتاد الى الانجليز ويبقى الايرانيون احرارا وان يشيدوا لانفسهم حصنا آخر .

٤ ـ ان يقتسم الانجليز والايرانيون مستقبلا العوائد الجمركية فى هرمز بالتساوى .

٥ ـ ان تعفى التجارة الانجليزية من الضرائب الى الابد .

وعندما انتصر المتحالفان واستسلم البرتغاليون فى ٢٣ ابريل ١٦٢٢ حدث سلب ونهب من جانب الطرفين لتلك الجزيرة المملكة .

وهكذا سقطت هـرمز فى ظل الصـراع الدولى والاقليمي ، ويصف أحد الكتاب الانجليز المدينة بعد الهزيمة بقوله : هذه المدينة الفقيرة (هرمز) قد غدرت بآمالها ومجدها المتواصل .

وهكذا ما لبثت مدينة هرمز التى كانت شهيرة يوما والتى سلمت لفارس ، ما لبثت ان نزع عنها كل ما هو ذو قيمة وباتت مثل صور وبابل ، وخلال سنوات قليلة أصبحت مأوى للبوم .

ان تلك الجزيرة التى كانت رفاهيتها وغناها مضرب الامثال ، والتى قيل انها كانت تعج باربعين ألف نسمة ، وكانت احدى أسواق التجارة الرئيسية (للشرق الفاخر) أصبحت عبارة عن صخرة قاحلة يقطنها حوالى مائتى نسمة يعيشون عيشة قاسية على بيع الملح الذى أصبح مورد التجارة الرئيسى .

وبعد خمس سنوات من الاحتلال يقول أحد الانجليز سيرتوماس هربرت (١٦٢٧) فى وصف هرمز :

فى نهاية الجزيرة تبدو خرائب تلك المدينة المجيدة ، المأسوف عليها .. لقد كانت مرة فى حجم (اكستر) وكانت مبانيها جميلة وفسيحـة ، وفيها بعض الاديـرة وسوق كبيـرة ، هذه المـدينة المسكينـة قد سلبت اليـوم من كـل بطولاتها .. ان هذا المكان الحزين الذى لا يساوى الان التملك ، كان منذ عشر سنين فقط المدينة الفخمة الوحيدة فى الشرق .

تلك هى قصة صعود وسقوط مملكة هرمز الشهيرة ـ درس للترف !

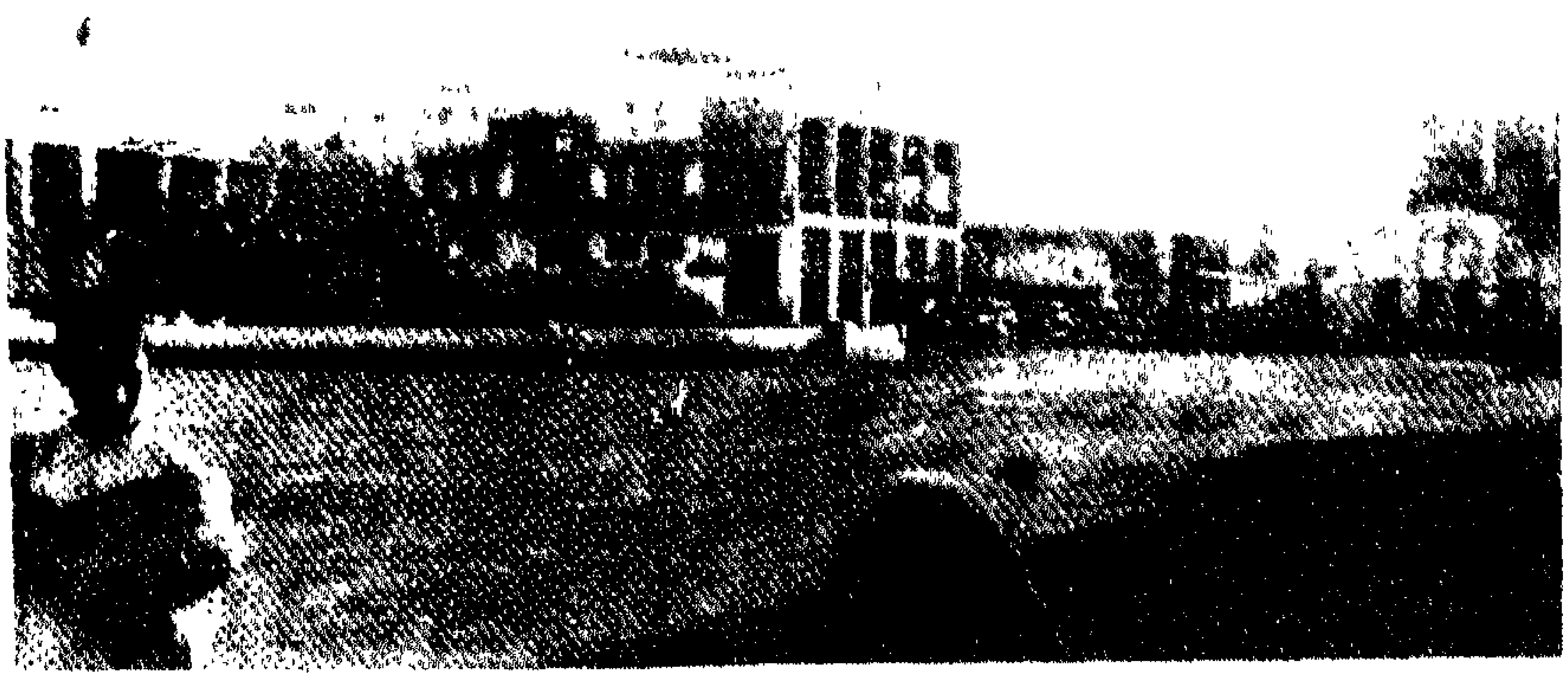

ـ الواجهة البحرية لدائرة جمرك لنجة

ـ حاكم لنجة سطوة المالك محمد

(المؤلف)
حسين بن علي العباسي الخنجي الوحيدي

لنجة لؤلؤة عربية
على شرق الخليج

لنجة : اسم يذكر بالديار القديمة او امرأة عرجاء ترعى الغنم

قليلة هى الكتب المؤلفة عن العرب على الساحل الشرقي للخليج ، ومنذ مشاهدات كريستيان نيبور الرحالة الدنماركى عن العرب على الساحل الفارسي ، وكتابات الرحالة الانجليز والعسكريين البريطانيين ، فلا يوجد الا القليل عن هذا الجزء من ساحل الخليج الشرقي ، الذى ظل حتى الثلاثينات من هذا العصر يحكم من قبل بعض القبائل العربية كالقواسم وبنى حماد والعبادلة والمرازيق والنصوريين .

ومثل هرمز ممثلة مدن الطفرة التجارية كانت مدينة (لنجة) . اللؤلؤة العربية على الضفاف الشرقية للخليج ، حيث تنعطف فيه اليابسة لتجعل الخليج حدا جنوبيا للمدينة . اهل لنجة يتكلمون اللغة العربية الدارجة ، وتعم العربية القرى التابعة لها من جهة الغرب حتى قرية (كنكون) بينما يتكلم اهل القرى التى في شرقها الفارسية .. والبعض الثالث يتكلم الفارسية ويكتب بالعربية !

الاقوال كالعادة تختلف في سبب تسمية (لنجة) بهذا الاسم . يقال على حسب رواية حسين بن على الوحيدى في تاريخ لنجة بأنها كانت في منتهى العمران قبل القرن العاشر الهجرى ، ولكن أهلها اختلفوا ، وعمت الفتنة حتى أفنى بعضهم بعضا ، فنزح بعضهم الى الاحساء والبحرين ، ونزح البعض الى موضع لنجة الحالى وسموا مدينتهم (لنجة) إحياء لذكر ديارهم القديمة ، الا ان هناك تعليلا آخر للتسمية أقل جمالا وتواضعا، تقول القصة ان امراة عرجاء كانت تسكن في هذا الموضع وترعى للناس أغنامهم ، وكان الناس يقولون بلهجتهم الدارجة (ودوا غنمكم الى اللنكة) اى العرجاء باللغة الفارسية .

لنجة في التاريخ كانت في فترة ما تحت حكم سلاطين عمان . واستقام الحكم لهم مدة سبعا وستين عاما .. الى سنة ١٢٣٠ هـ وظلت المدينة بدون حاكم لمدة عامين حتى أجمع اهلها على تولية احد القواسم فاختاروا (قضيب بن راشد بن مطر القاسمى) الذى حكم حتى وفاته عام ١٢٤٠ . بعد تولى ابنه محمد الذى حكم احدى عشر عاما ومات بشكل درامى . يقال انه خرج على ظهر حصانه في ليلة مقمرة الى قرية شناص غربي لنجة . أثناء عودته برزت له ثلاث نسوة فجأة ، ينادينه باسمه ، ففزع وجرى بحصانه ، فتبعنه فزاد فزعه ، ولما وصل الى بيته اخذته الرعدة والحمى ، وقيل له بانهن ساحرات يردن تخويفه ، فتضاعف خوفه وتدهورت حالته فمات !

وكما يقولون فان في دنيا التخلف عجائب ! فبعد وفاته بمدة مر بالمدينة هندي فقير يشبه الشيخ الراحل، فاعتقد بعض السكان بأن شيخهم المسحور قد عاد فتشبثوا به واصروا على انه حاكمهم رغم انكار الفقير الهندى فلما رأى الهندى اصرارهم وكم هم مغفلين وافقهم ، فسلموا اليه اموال الشيخ ، فرتع اياما في الرزق المفاجىء المجانى ، واستطاب ما هو فيه الا ان بعض عقلاء المدينة انكروا على المغفلين ما فعلوه واخرجوه من المدينة !

بعد وفاة محمد حكم اخيه سعيد (١٢٥١ - ١٢٧٠) الذى توفى سنة ١٢٩١ هـ وخلف ولدا عمره ستة عشر عاما فأصبح الشيخ يوسف (١٢٩٥ - ١٣٠٣ هـ) الا ان سلسلة الثأر لم تتوقف حيث دس ابن عم القتيل السم للشيخ يوسف، ودخل عليه فقتله اما آخر سلالة الشيخ يوسف فيعيش في دبى ولديه حفيد صغير من ابنته يلقب بـ (محمد بيبسى) !!

لم تكن حكومة طهران المركزية غافلة عما يجرى ، حيث ارسلت في عام ١٣٠٣ هـ اول حاكم ايرانى إلى لنجة يسمى هداية الله خان ، وبـوصوله انهى حكم القواسم .. الا ان الابن الثانى للشيخ خليفة ويسمى محمد ، وباتفاقه مع السيد يوسف بن جعفر الهاشمى وبثلاثمائة نفر مسلح حاولوا الاستيلاء على لنجة ، الا ان حكومة طهران عالجت الامر بخدعة سياسية ، كما ان الانجليز تدخلوا في المعركة لصالح الحكومة الايرانية ، فاقتنع الشيخ محمد بأن العداء المستمر في السياسة الانجليزية للقواسم سوف لن يتركه فانسحب وحده الى الجبال .. وسقطت لنجة نهائيا في يد الحكومة المركزية في طهران وانتهى حكم القواسم بعد ٩٤ سنة في الثامن من شهر شوال عام ١٣١٦ .وقد بقى الشيخ محمد هائما على وجهه فى الجبال ، ثم استقل سفينة شراعية متوجها الى رأس الخيمة عند ابناء عمومته ثم استقر في الشارقة حتى مات .

لنجة كانت كعادة المدن التجارية ، مزدهرة ، التجارة فيها حرة وصارت من اهم موانىء الخليج وساعدتها حرية التعامل من احتلال مركز قوى ، حيث يفد عليها تجار الخليج . كان تجارها يجلبون الارز والقمح والاقمشة الحريرية والمزركشة والسكر ، وكان التجار يملكون ٤٠ سفينة خشب كبيرة صالحة للسفر البعيد ، وفى اول ايام الصيف يتوجهون بسفنهم صعودا الى البصرة والمحمرة وعبادان ، فيحملون التمر والدبس الى لنجة ، ثم يحملون منها السجاد والورد والمستكى ويتوجهون الى الهند وعدن وافـريقيا ، ثم يرجعون من افريقيا بالسكر والقرنفل والخشب ، والقهوة من اليمن واللبان من ظفار والاقمشة من الهند .

الا ان الاحوال تتبدل ، دول تذهب ودول تأتى ، ولو دامت لغيـركم ما وصلت لكم ، فكان حكم الحكومة المركزية في طهران قاسيا ، حيث نهبوا لنجة وكسروها ، وكان الجنود اذا رأوا مرآة مطلية بالذهب في احد الدور قالوا : العرب جعلوا على بيوتهم الذهب ، فيكسرونها ويصادروا الذهب لانفسهم ، ولهذا انعكس هذا الوضع من عدم الاستقرار على لنجة ، فكسدت وتحول تجارها الى دبى ، لكن المدينة ظلت حتى عام ١٣٢٧ مجال مناورات سياسية دولية ، ففى نفس العام رفع القنصل الفرنسي علم فرنسا عليها ، وازداد التعقيد حين دخل الانجليز الى لنجة بالقوة في ٢٣ شوال ١٣٢٨ وفي عام ١٣٢٩ زار قنصل الاتراك لنجة ورفع العلم العثمانى في (بنقلة) السيد سالم بك الخاجة .

لقد تدهورت الاحوال في لنجة وسارت من سيء الى اسوأ ، وهاجر اكثر اهلها بعدما اعلن الشاه بكشف حجاب النساء ، اذ تحركت غيرة النـاس ففروا من لنجة ويروى حسين بن علي الوحيدى مؤلف تاريخ لنجة هذه القصة عن قرية (كلات) وهى بندر على البحر آلت الى الخراب بعد ما اعلن الشاه رضا اعلان سفـور النساء ، وحـررت الأوراق من رجال الأمن بـأن تأتى النسـوة سافـرات لاخـذ أوراق رخص سفن أزواجهن ، ورغم محـاولات النواخذة رفض هذا القانون الا أنهم لم يستطيعوا ، فقاموا بالقاء القبض على موظفي الأمن واوثقوهم وفروا بأهاليهم الى خورفكان . حتى صارت لنجة كما يقول المؤلف (خرابا بلقعا) او تكاد .

ترتبط لنجة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا بالمناطق المجاورة لها ، وسكان هذه القرى تتراوح لغاتهم ما بين من يكتب ويتكلم بالعربية ومنهم من يتكلم الفارسية ويكتب بالعربية (مثل كنكأ) وهذه من الغرائب كما يقول المؤلف . ومنهم من يتكلم العربية وهم من العرب ، ومن عادات اهل هذه القرية اتراف النساء ، اذ ان المرأة عندهم ذات ترف واضح حيث تبدى عناية فائقة بنفسها ومظهرها وحليها لدرجة ان زيها انتشر كموضة بين نساء الخليج .. وقرية (جيرو) بندر على البحر وتتبع لحكم العباد له واهلها حوالى الخمسمئة من العرب الشوافع .

اما منطقة (القابندية) فهى مركز حكم النصـوريين الذين حكمـوا هذه المنطقة مع منطقة (كنكون) وهم كما يقول مؤلف تاريخ لنجة عرب اقحاح من بنى خالد اولهم الشيخ جبارة وآخرهم الشيخ ياسر .. لكن الايام غيرت حالهم وجعلتهم اعاجم في التربية والنزعة يرطنون بالفـارسية .. بعضهم تشيـع والبعض ظل سنيا ، ومن قرى هذه المنطقة (بوجير(وتتبع لمشايخ بنى حماد ، وقرية (دشتى) وقرية (مليكان) واصلها قرية مالك وكان اهلها عرب ثم غلبت عليهم الاعجمية .. وقرية (كوش كنار) او كما تسمى (كشكنـار) اى قصر كنار .. وكانت مركز آل الحرم .

اما منطقة بستك المجاورة ، فتقع في الداخل وهى منطقة حصينة تحيط بها الجبال الشاهقة وبها اكثر من ٦٠ قرية يسكنها اكثر من خمسين الف نسمة معظمهم من الشوافع .. وكانت تحكم من قبل عوائل عباسية أتوها بعد نكبة هولاكو .. وقد هاجر معظم اهلها الى السـاحل العـربى على الخليـج واشهرهم الشيخ مصطفى بن عبداللطيف العباسى .

اشهر عوائل لنجة التى يستعرضها المؤلف الوحيدى : عائلة البوسميط ، وكانوا يعملون في صيد اللؤلؤ ، فضايقتهم السلطات الايرانية بفرض ضرائب باهظة عليهم ، فانتقلوا الى ميناء جسم ، فطلب شيخ البحرين الحماية لهم في عام ١٩٠١ (الخاجة) وهم عرب وردوا لنجة قادمين من كنكون ، وكان سبب ثرائهم انهما اخوان (عبدالله ويوسف) عملا موظفين مع التاجر الكبير خليفة بن عبدالله العتيبى ، الذى قال لهما يوما : لم لا تشتريان شيئا تكسبان من ورائه ؟! فقالا : ليس لدينا مال نتاجر به ، فقال لهما : قيدا باسمكما جنسا تستفيدان منه . فقيدا باسميهما صفقة شعير ، وشاء الله ان يزيد سعره بعد ايام فباعا وكسبا من ورائه حتى تغانيا .. وكان احد احفادهم وهو سالم قنصلا للدولة العثمانية .

عائلة (العيونى) وهم عرب من البحرين، (القلدارى) استعربوا بزواج حسين القلدارى من بنت حمود الصورى القاسمي (آل رحمة) وهم من البحرين .. (ال بهزاد) وهؤلاء عرب اقحاح خلافا لما يوهم ظاهر اسمهم واصلهم من الجرة وهى قرية في شيبكو ثم نزلوا لنجة وتعاموا في اللؤلؤ وكان جدهم مشهورا بالسخاء لدرجة انه تنازل عن ديخاله يبلغ الاربعين الف روبية وهى في ذلك الوقت ثروة (الخنجى) وهم من بنى العباس .

(ال عرشى) وهم ينتسبون لعرب اليمن ، جاءوا من جزيرة قيس ، ومن اهل البحرين (السيد محمد بن شرف) وكانت فيه جرأة وعزة ، حيث طلبه رئيس حكام البنادر الايرانية السيد دريابكى ان يأتى اليه فلم يذهب واعلمه بأن خير الامراء من يأتى الى ابواب العلماء فجاء اليه ، والسيد شبر بن السيد الموسوى وكان هو الاخر جرىء انتقد الانجليز فنفوه الى دبى (أحمد بن محمد السرحان) (صالح بن صالح بن عطية) عين رئيسا لدائرة المعارف .

تلك هى لنجة. مدينة ارتفعت وسقطت ، وبقيت منها ابيات قالها احد شعرائها ويرددها ابناؤها وتلخص مصيرها :

يا لنجة سار منك الجود اجمعه
وقد أتاك نذير الذل والعدم

وكنت قبل كغيم سح وابله
على الروابى والاطلال والأكم

●●●

يا أهل لنجة دأب الجهل ضيعكم
وبالمعارف تلقى جملة الامم

مذكرات
أميرة عربية

أميرة أحبت شابا ألمانيا ..
وهجرت الامارة

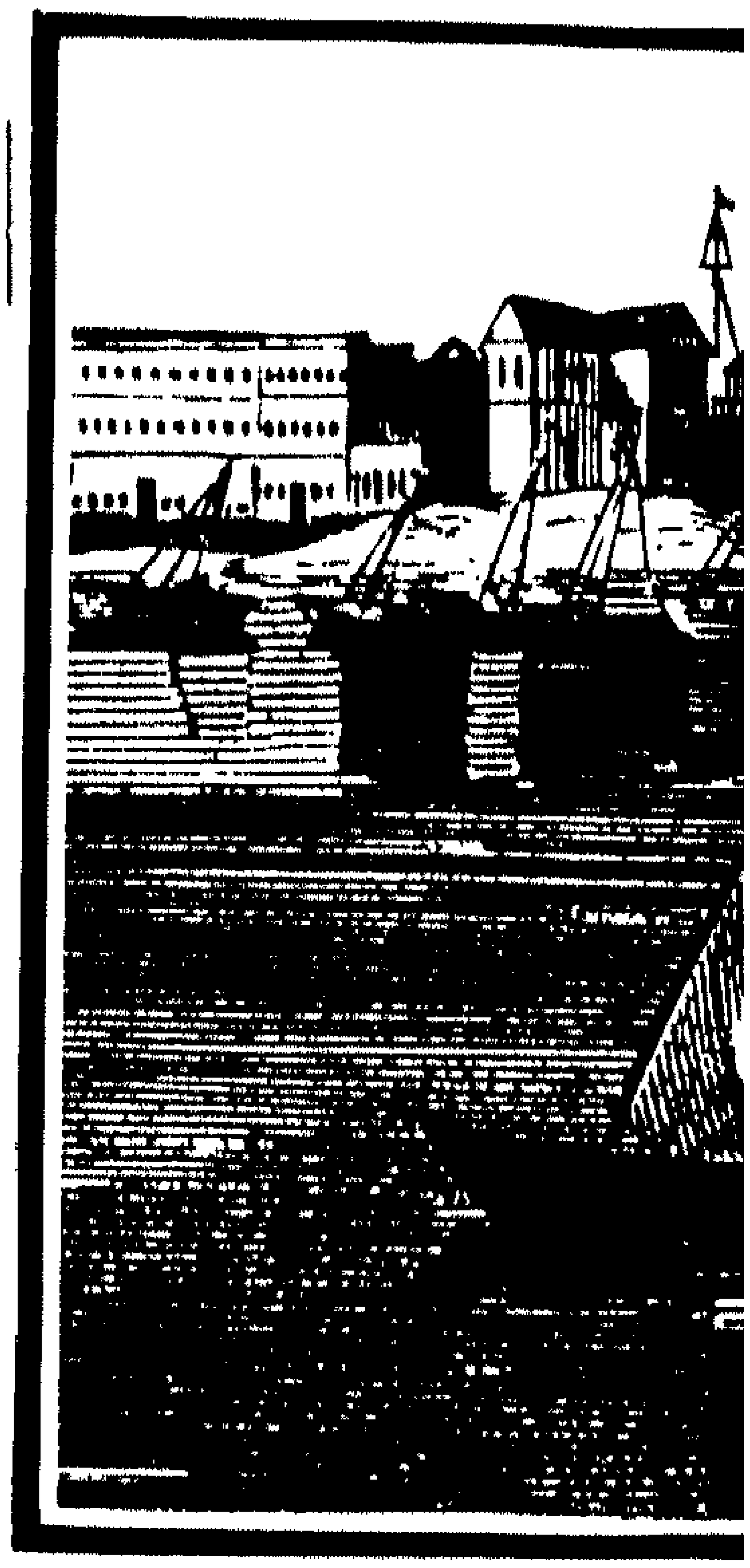

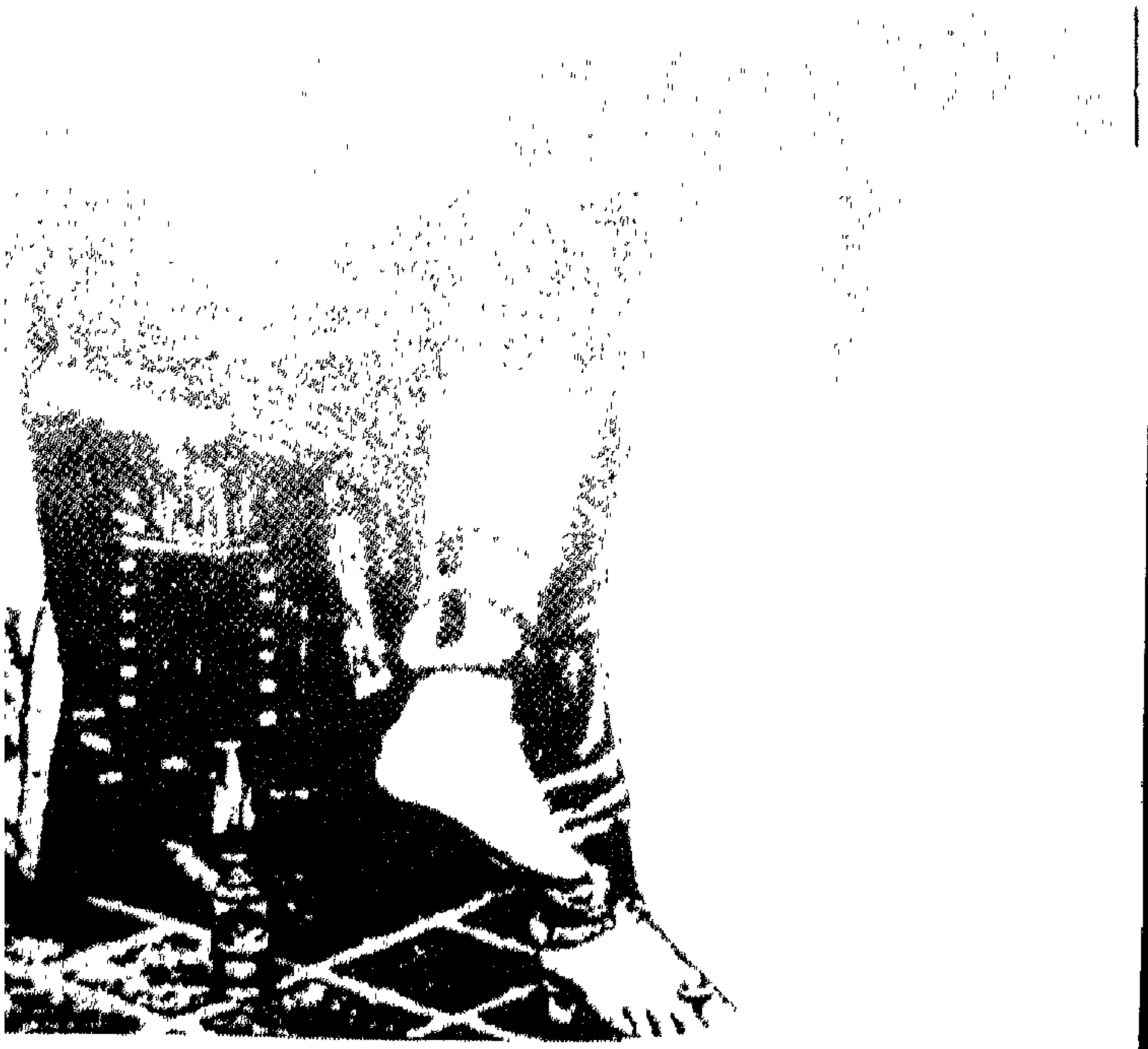

أنهيت منذ تسع
سنوات كتابة قصة حياتى
هذه ، وكنت قد قررت كتابتها
ليقرأها من بعدى أولادى حين يكبرون ،
فلم يكونوا في ذلك الوقت في سن
تسمح لهم ان يعرفوا شيئا عن
ماضي حياتي وأصل منبتي وعن وطني زنجبار
وقومى العرب ، وكنت في حالة من الوهن والسقم
والارهاق ، لم أكن اتصور معها بقائي على قيد الحياة
أمدا يكفي لأن أروى لهم بنفسى سيرة حياتي ..

البرنسيس أميلى روث
أصلا
السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان
برلين ١٨٨٦

كان اللقاء الحضارى او الاحتكاك الحضارى محورا أساسيا من محاور الشرق والغرب ، منذ تلك الاندفاعة العربية الأولى لاسقاط كل من دولتى الفرس والروم ، وصولا حتى اسبانيا والهند ، وتجلت فى ازدهارها بتلك الساعة العربية التى أرسلها هارون الرشيد الى ملك الفرنجة شارلمان ، مرورا بعصور الانحطاط ، وذهول الجبرتى من « اختراعات » علماء الحملة الفرنسية ، واندهاشات رفاعة رافع الطهطاوى فى شوارع « باريز » ، مرورا بالحى اللاتينى ادبيا ، حتى الوصول الى موسم الهجرة الى الشمال .

والملاحظ دائما ان مراكز اللقاء او التصادم الحضارى تتركز فى حاضرة العرب الشمالية سواء فى دمشق او القاهرة او الجزائر ، وتكاد تختفى ـ ان لم تنعدم ـ قضايا التصادم فى الجناح الشرقى من الوطن العربى ، ليس لعدم حدوثها ، بل لأمور عديدة ابسطها عدم تأريخها أوكتابتها .

الملاحظة الثانية ان هذا التصادم يتركز فى عالم الرجال فقط ، فى رحلاتهم ، أحاديثهم ، كتاباتهم ، وليس هناك ذكر لدور المرأة الشرقية فى هذا المجال ، ومدى رؤيتها الفكرية لمثل هذا الاحتكاك الحضارى .

لذا فان سيرة السيدة سالمة بنت السيدة سعيد بن سلطان (سلطان مسقط وزنجبار) تأتى لتخترق هذين المحورين ، فهى أولا عربية عمانية من زنجبار ، وثانيا امرأة شرقية تصطدم بالحضارة الغربية فى القرن التاسع عشر ، أى حينما كانت هذه الحضارة فى أوج قوتها الديناميكية .. فماذا كان موقف هذه السيدة العربية من هذه الحضارة ؟! وقبل هذا كله : من هى السيدة سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان ، وكيف وصلت الى أوروبا فى القرن التاسع عشر ؟!

هى السيـدة سـالمة بنت السيـد سعيـد بن سلطان ، مـؤسس حكم آل بوسعيد فى زنجبار ، وهى أميرة شرقية عربية وابنة سلطان عربى تخرج قبل اكثر من مائة عام على تقاليد قومها فتتزوج شابا المانيا ، وتهجر من أجله وطنها وملك أبيها ، وتترك حياة العز والقصور لتطوح بها الاقدار فى ديار الغربة بين لندن وبرلين ، ويصبح اسمها « البرنسيس أميلى روث » ثم تضيق بها الحياة بعد عشرين عاما ، أو تضيق هى ذرعا بالحياة الاوروبية فتحن الى الرجوع الى وطنها الأول ، انها قصة كما يقال غريبة ، نادرة ، تكاد أن تشبه قصص الخيال .

ولدت سالمة بنت السيد سعيد ، وكان والدها أبا عطوفا على ابنائه الذين بلغ عددهم حوالى مائة ابن وبنت ، بقى منهم ٣٦ عنـد وفاتـه ولكن وفرة مشاكل السياسة والحكم وكثرة الحروب والفتن واضطراره للانتقال بـين شقى سلطنته لم تدع له الوقت الكافى للعناية الدائبة بأمر العشرات من بنيه وبناته ، فأخذت الامهات القياد وغرسن بذرة التنافس والحسد بين الاطفال فنشأوا متباعدين يكره بعضهم بعضا ويكيد كل للآخر .. منذ الصغر وحتى التنازع على السلطة .

فى هذا المحيط نشأت سالمة تحت ظل امها الشركسية الصلبة الرأى فى قصر الموتنى .. حيث كانت تمارس رياضة الخيل مع اخيها الحبيب ماجد الذى علمها المبارزة بالسيف والرمح والخنجر ، وهى تصعد الاشجار العالية وتتعلم الكتابة سرا ..

وقد توفى السلطان سعيد ولم تكمل ابنته سالمة الثانية عشرة من عمرها ، ثم تلته أمها بعد بضع سنوات ، فظلت بعدهما وحيدة نفسها ليس لها من يرعاها ويوجهها غير اختها خولة .

وفى ظل انتقال السلطة الى السلطان الجديد ، ووسط كل ذلك الصراع العائلى تغيرت الحياة الهانئة المطمئنة ، وتدخل سواء بمحض الصدفة أو بتأثيرات اختها فى مؤامرة مع أخيهـا « برغش » ضـد السلطان الجديـد « ماجد » .. وهو الآخر اخوها ، وتفشـل المؤامـرة فتنزح الى الريف مـع الارهاق والعناء والقلق وخسران الصحة والمال وجفوة الأهل والأصحاب .

وفى سن الثامنة عشـرة من عمرهـا ووسط تلك العـاصفة التى مـرت بعائلتها ، اعتزلت أهلها واصحابها ، وفى غمرة هذه الحالة النفسية العصبية والقلق الفكرى ، تلتقى بالشاب الألمانى الذى اصبح فيما بعد زوجها .

وتروى الأميرة حكايتها :

فى خلال تلك الايام الحالكة الحافلة بالكيد والشجار بين افراد عـائلتنا اسعدنى الحظ بالتعرف على شاب المانى كان ممثلا لأحد المحال التجارية الالمانية فى زنجبار ، ولقد تمتع الأوربيون فى زنجبار أثناء حكم أخى « ماجد » بمركز اجتماعى لم يكن لهم من قبل ، فكانوا يحلون ضيوفا معززين مكرمين على أخى فى قصره أو مزرعته ، وقد أقمنا أنا وأخى وأختى خولة علاقات طيبة مع بعض العائلات الاوروبية فى زنجبار تتجـلى فى تبادل المجـاملات والزيارات بقدر ما تسمح به عادات البلد وتقاليدها ، وكانت زيارات السيدات الأوروبيات تقتصر على وعلى أختى خولة من دون نساء القصر .

وقد تعرفت على زوج المستقبل « هذريج روث » حينما كانت الدار التى سكنتها مجاورة لداره ، وكان سطح داره أوطأ من سطح دارى ، وكنت غالبا ما أرقب من نافذتى حفلاته الرجالية الباذخة التى كان يتعمد اقامتهـا فى الأمـاكن التى يقع عليهـا نظرى ، لعلمــه بـرغبتى فى الاطلاع عـلى هــذه الاحتفالات الغربية ، وسرعان ما شاع فى البلد خبر صداقتنا التى تطورت فى النهاية الى حب متبادل فسمع بها أخى « ماجد » ، ولم يحرك ساكنا .

وكان طبيعيا لى ان احاول الخروج من البلاد سرا طالما يستحيل زواجى فيها، وقد فشلت محاولتى الاولى ثم تهيأت لى الفرصة ثانية بفضل زوجة الدكتور والقنصل الانجليزى التى نقلتنى فى احدى الليالى بزورق ربان باخرة حربية بريطانية ، واتجهنا الى ميناء عدن .. وفى عدن نزلت بضيافة عائلة اسبانية لعدة شهور انتظر زوجى بعد ان يصفى اعماله فى شركته ، وفى فترة الانتظار هذه اخذت اتلقى تعاليم الدين المسيحى ، وما ان وصل زوجى حتى تم تعميدى باسم « أميلى روث » فى الكنيسة الانجليزية فى عدن، وتبعته فى الحال مراسم الزواج طبقا للشعائر الانجليكانية ، ثم سافرت وزوجى الى وطنه هامبرج حيث استقبلنا والده وأهله بترحاب حار .

وفى الحـال حملت نفسى عـلى التكيف عـلى العيش فى المحيـط الاجنبى الجديد ، وبدأت بكل لهفة وحماس أتعلم كل ما يمكن ليساعدنى فى حياتى المستقبلية ، لكن حياتنا السعيدة لم تستمر الا فترة قصيرة ، فلم يمض على استقرارنا فى هامبرج الا ثلاث سنوات وبعض السنة حتى أصيب زوجى العزيز الحبيب بحادث خطير اثناء قفزه من عربة الترام ، وبعد ثلاثة ايام وافاه الأجل المحتوم .

وهكذا قدر لى ان أبقى وحيدة فى هذا القطر الكبير الغريب ومعى ثلاث اطفال لم يتجاوز عمر اصغرهم الثلاثة شهور ، وقد فكـرت فى العودة الى وطنى ، ولكن القدر شاء ان يلاحقنى بالفواجع ، فقد توفى بعد شهرين أخى « ماجد » الذى عودنى منذ الصغر على العطف والحنان .. وبقيت بعد هذا سنتين فى هامبرج لم يفارقنى فيها سوء الحظ ، وقد فقدت مقدارا كبيرا من ثروتى ، بسبب اخطاء بعض الناس الذين وثقت بهم ، وأحسست بالنفرة من هذا المكان الذى شهد الكثير من ايام سعادتى وزاد فى ألمى ازورار بعض أهل البلد عنى وعدم معاملتهم لى المعاملة التى تليق بى .

وبين تلك البداية والنهايـة حكايـة طويلة حيث تروى السيـدة سالمـة بأسلوبها البسيط الصادق صورة الحياة الاجتماعية فى زنجبار القرن ١٩ ، وتروى طفولتها وصباها وأخبار اخوانها واخواتها .. ومما يجب ان لا يغرب عن البال ابدا ان المؤلفة كتبت هذه المذكرات للجمهور الالمانى خاصة لتعريفه ببلادها واحوال بنى قومها ، ورغم تنصرها وحياتها الطويلة فى بلاد الغرب وتنكر أهلها لها ، فقد ظلت وفية مخلصة لأهلهـا وبلادهـا ودينها الأول ، فخورة بهم دوما ، وكان من أثر تربيتها وشخصيتها ان حياة الغرب لم تؤثر فيها كثيرا .. حيث يظهر كل ذلك فى ثنايا الكتاب .. ولنقرأ :

* * *

كان من عادة أبى ان ينادينى « بيبى » أى السيدة العجوز ، وذلك لأنى كنت مغرمة بنوع من حساء الحليب وهو الأكلة المفضلة للعجائز الدرداوات .

وخلافا للرأى الشائع فى هذه البلاد (تقصد المانيا) فلم يكن فى بلادنـا تفضيل للبنين على البنات ، ولا اذكر انى شهدت فى حياتى أبا أو أما فضلوا ابنا لهم على بناتهم ، واذا كان المشرع قد ميز البنين ببعض الحقوق فى بعض الحالات ، كحالة الميراث مثلا، فان هذا التمييز القانونى لا وجود له البتة فى المعاملة البيتية للأطفال ، ولكن كما يحدث هنا فى المانيا او فى غيرها من بقاع العالم يحدث فى ذلك البلد الشرقى ايضا .

* * *

كانت أختى « خولة » بالاضافة الى جمالهـا الأخاذ ذات ذوق مـرهف وكـانت كلمتها فى أزيـاء النسـاء هى القـول الفصـل ، كمـا كـانت كلمـة الامبراطورة أوجينى فى زمانها ، ولعل من غـرائب الطباع ان تكـون اشد النساء غيرة من خولة وحقدا عليها اختها الشقيقة « عائشة » .

أما أخواى « هلال » « وثوينى » فلهمـا قصة، « فهـلال » قد افسـده الفرنسيون وعلموه شرب الخمر حتى منعه أبى من دخـول القصر ، ولقد ازداد ادمانا حتى انتهى بالموت السريع ، أما « ثوينى » ، فهو من مواليد مسقط وكان يحكم عمان وقد قتل على يد ابنه « سالم » ..

واشتعلت الحـرب بـين الاخـوة بعـد وفـاة السلطان .. وحـاول الابن « بـرغش » الاستيلاء عـلى السلطة من أخيه « مـاجد » بـالاضـافـة الى « ثوينى » ، واندلع الخلاف بين الاخوة ، حزب يقوده « برغش » والحزب الآخر بقيادة « ماجد » ..

وتقول سالمة : مع اننى كنت أصغر النسوة المتآمرات سنا الا ان معرفتى للكتابة اهلتنى لمنصب « السكرتيرة العامة » للثورة ان صح هذا اللفظ .. وفى النهاية فشل المتمردون .

وتقول سالمة : وعلى كل حال فلم يكن للبريطانيين آنذاك النفوذ الذى لهم الآن فى زنجبار وشرق افريقيا ، ولكن ابتداء من عام ١٨٧٥ ومن هذا العام فقط ، تغيرت الامور بشكل ملحوظ لصالح بريطانيا على حساب دمار شعبنا وافقاره واسترقاقه والفضل فى ذلك للسياسة الانجليزية فى مكافحة الرقيق !

وبعد اشتعال حرب الاخوة ضمن حبكة روائية تقدمها سالمة باسلوب شيق حول الفتنة بين الاخوة على الحكم فى زنجبار، وبعد هزيمتها ، وزواجها من الالمانى ، تنثر بين تلك الفصول الممتعة رأيها فى الحياة الغربيـة تجاه الشرق .

وهاهى الاميرة سالمة تطرح وجهة نظرها قائلة للغربيين : لا اريد من هذا ان اعدد او اشرح كل عاداتنا او تقاليدنا ، وانما الذى اهدف اليه هو تمكين القارىء الاوروبى من تكوين صورة صحيحة عن بعض الانمـاط الهامـة للحياة فى الشرق .. وتبدأ بالحديث عن وضع المرأة فى الشرق بالهجوم قائلة :

السر فى شيوع هذه الافكار الخاطئـة هو التسـرع فى الأحكام والأخـذ بمظاهر الاشياء فقط واستقاء المعلومات من غير مصادرها الاصلية ، فعلى الرغم من شيوع المواصلات وسهولتها بين اوربا والشرق ، فما يزال الشرق فى نظر الغربيين بلد الغموض والسحر وقصص الخيال والخرافات .. فاذا حدث ان مر سائح ما مرورا عابرا فى الشـام او تونس او القسـطنطينيـة والقاهرة فانه لا يتأخر عن الكتابة عن هذه الاماكن كتابة الخبير العالم بها، وكل مصادر علمه هو خدم الفندق الذى ينزل فيه او اصحاب الحمير التى تنقله فى تنقلاته ..

وتقول : وقد وقعت فى نفس الخطأ أول وصولى الى اوروبا بسبب انخداعى بظواهر الأمور ، فقد خدعتنى - وأنا ازور بعض العائلات او اخرج معهم - علائم البشر والابتهاج يغمر وجوههم ، فذهبت الى الظن ان الحياة العائلية فى اوربا اقرب الى السعادة والهناء منها فى بلادى (...) وقد انتهت بى ملاحظاتى المتكررة الى ان نظام الزواج المسيحى لا يفوق النظام الاسلامى فى شىء ، ولا يحقق بذأته سعادة اكثر (...) وانا اتكلم عن معرفة تامة بالأحوال فى زنجبار وبصورة تكاد تقاربها عن الأحوال فى عمان ، وحيثما يسود الاسلام تتشابه الأحكام والأحوال باستثناء بعض المجتمعات التى غزتها فأفسدتها سفسطات الغرب المسيحى .

وتصحح سالة الفكرة الخاطئة التى تذهب الى ان المرأة الشرقية تنزل فى المجتمع فى منزلة اقل من منزلة زوجها ، فى حين ان الواقع ان الزوجة تساوى زوجها مقاما وحقوقا وامتيازات وان منزلتها الاجتماعية محل التقدير والاحترام ، ومن التقاليد العربية الاصيلة - وربما كان مصدرها الشريعة الاسلامية نفسها - عدم جواز المرأة بمن ليس كفئا لها .

وتقول : ومما جعل المرأة الشرقية تبدو وكأنها لا حرية ولا حول لها هو الحجاب وحياة العزلة ، فتعترف ببعض الميزات الا ان النظرة الشرقية فى هذا الأمر كثيرة الشدة والصرامة ، لكنها تجد ايضا ان تبرج المراة الاوروبية فى لباسها وزينتها وهى تظهر فى الحفلات العامة لا يعدو كونه هو الآخر تطرفا ممقوتا فى الاتجاه المعاكس .

وتقول : ان عزلة المرأة الشرقية قد تكلفها الكثير من المشاق ، ولكن مع هذا الا أرى مبررا لعواطف الاشفاق والأسى التى يبديها الأوروبيون تجاه ما يسمونه مأساة المرأة الشرقية ، وتنتقل الى مسألة تعدد الزوجات فتقول : لا جدال فى ان الدين أباح للمسلم ان يتزوج اربع زوجات فى آن واحد (...) وعلى هذا فالسائد عملا فى المجتمع هو الزواج بواحدة .

وتنتقل الى الهجوم مرة اخرى قائلة : وبعد .. فمن الواضح ان ما من رجل ، وبالاحرى ، ما من امرأة تستطيع ان تجد عذرا أو مبررا لتعدد الزوجات ، ولكن ما هو حال الزواج بين المسيحيين وبين الأوروبيين المثقفين منهم ؟ ولتر هل ان الزواج عند الاوربيين هو نظام مقدس فعلا ؟ أو ليس من السخف فى اكثر الاحيان ان نتكلم عن (زوجة) واحدة للرجل الغربى (...) ان الغربيين يتعمدون آثمين مخالفة تعاليم دينهم باتخاذهم الخليلات بالخزى والفجور ! ولعل الفرق الوحيد بين المرأة الشرقية وزميلتها الغربية ان الاولى

تعرف بوضوح وبالضبط من هى منافستها او منافساتها وعددهن ومشاكلهن ووضعهن فى حين تبقى المرأة الغربية فى جهل تام عن هذا كله !

وعن ضرب النساء تقول السيدة سالمة : اننى استطيع ان اجزم عن وعى وادراك بأننى سمعت هنا اكثر مما سمعت فى الشرق عن ازواج ظاهرى الرقة والثقافة لا يتورعون عن ضرب زوجاتهم فى بيوتهم ، فى حين ان العربى يترفع عن هذا التعدى لان شيوعه عنه يحط من قيمته بين الرجال .

وتنتقل الى شرح العلاقات الزوجية العربية وتقول : ان الحكم الصحيح على الاحوال الاجتماعية يتطلب النفاذ الى بواطن الأمور واحوالها وهذا لا يتأتى فى زيارة عابرة لا تدوم ـ ان طالت ـ الا بعض اجزاء الساعة .. فكيف يصح لزائرة مثل هذه ان تدعى العلم ببواطن الأمور والنفاذ الى دخائلها ومن ثم اصدار الاحكام عليها .

وتقول السيدة سالمة : لا استطيع بأية حال من الأحوال ان انكر ما فى الكثير من عادات الرق من التزمت او التطرف ، ولكن هل تخلو اوربا من أمثالها ؟ فهناك العزلة التامة بين الجنسين وهنا الاختلاط والاباحة بينهما ، وهناك التستر والغطاء والحجاب فى بلاد البرد والجليد نجد الصدور المكشوفة والسيقان العارية ، ولهذا فانك تجد التطرف فى كلا الجانبين وما منهما من استطاع ان يكتشف القاعدة الذهبية ، قاعدة الاعتدال والتوسط بين الأمور .

وعن الصيام تقول للغربيين : والصيام ليس مظهرا خارجيا ، اى عمل امتناع عن الطعام فحسب، وانما هو للمسلم امتحان للنفس وحساب لها عما قدمت من خير لتزيد منه وما اقترفت من ذنب لتستغفر عنه ، والصيام ايضا امتحان للارادة فهو امتناع عن الفعل السىء والقول البذىء واقبال على عمل الخير والعبادة وفضائل الاخلاق ، لهذا فان صيام رمضان يهدف الى صفاء القلب وسمو الروح وجلاء العقل .

وتنتقل الى مهاجمة الغرب بعد شرحها للوضع الصحى فى زنجبار قائلة : اننى اعتقد ان من الافضل للعالم المسيحى ان يرسل الى زنجبار طبيبات بدل البراندى والمشروبات المسكرة المحطمة للروح والمفسدة للاخلاق ، وانى لأعجب من أمر الغربيين ، ولا ادرى لماذا يجب ان تقترن المدنية عندهم بالرذيلة ؟!

ولم تكن حياة السيدة سالمة فى اوربا هنيئة ، فقد حاولت العودة الى وطنها ، وقررت اللقاء بأخيها « برغش » الذى كان ينوى زيارة لندن فى عام

١٨٧٥ ، وأدخلت السيدة سالمة فى خضم الصراع الدولى البريطانى ـ الالمانى .. الا ان الدبلوماسية البريطانية منعتها من ذلك لثلاثة اسباب : الاولى انهم يسدون للسطان خدمة يرتاح اليها ، واننا نطمئن الاميرة الى وضعها لفترة من الوقت ، والثالث اننا نسلب من المستشار الالمانى (بسمارك) حجة التدخل فى هذه القضية .

وتعتقد الاميرة سالمة التى رفضت السلطات البريطانية ان تجعلها تلتقى بأخيها السلطان « برغش » بأن السبب يكمن فى رغبة الحكومة البريطانية فى توريط « برغش » بتوقيع بعض الاتفاقيات التى عادت بالشؤم والبلاء على زنجبار ، وكان السلطان يجهل اية لغة اجنبية ! وتواصل قولها :

ولمعرفتى البسيطة بالفكر الاوربى والسياسة العالمية فقد خشيت بريطانيا ان يؤدى قربى من اخى السلطان الى افهامه ما لا تريده ان يفهم ..

الا ان الحنين لم يتوقف وهاهى تكتب عن أوضاعها : لقد كانت السنوات الطوال الحافلة بالاحداث والتى عشتها منذ ان تركت وطنى فى الجنوب فترة كفاح ونضال مررت خلالها بأقسى التجارب واعنفها مما لا يتمناه المرء لأشد خصومه عداء والتى كانت حصيلتها نفسا مرهقا وجسما متعبا ، ولقد ساعدتنى اول الأمر بنيتى القوية على احتمال الشدائد والنوازل ، لكن تعاقب المشاكل والصدمات هدت من كيانى وأضرت بصحتى ، فكان لابد لى من تغيير الجو .

وهكذا قررت زيارة الوطن بتشجيع من السلطات الالمانية وبشوق وحنين للأهل والأوطان .. وعندما تصل الى زنجبار تصف شعورها قائلة :

هنا ولدت ونشأت عربية مسلمة وفى أعز دار ، ثم حكمت على الظروف بالهجرة الى بلاد لم اكن قد سمعت بها أو رأيتها من قبل ، وها أنا اعود الى بلادى نصف مسيحية ونصف المانية ، ومن غرائب الصدف ان تكون عودتى الى وطنى بعد هذا الاغتراب الطويل فى نفس الشهر الذى غادرت فيه قبل تسعة عشر عاما .

الا ان الزيارة لم تكن ناجحة ولم تحقق غرضا سياسيا ملموسا لا للحكومة الالمانية ولا نفعا شخصيا للأميرة ..

وهنا تنتهى مذكرات الأميرة .. التى توفيت فى حوالى عام ١٩٢٢ وكانت فى حدود الثمانين من عمرها .. بعد ان غدرت السياسة بآمالها ..

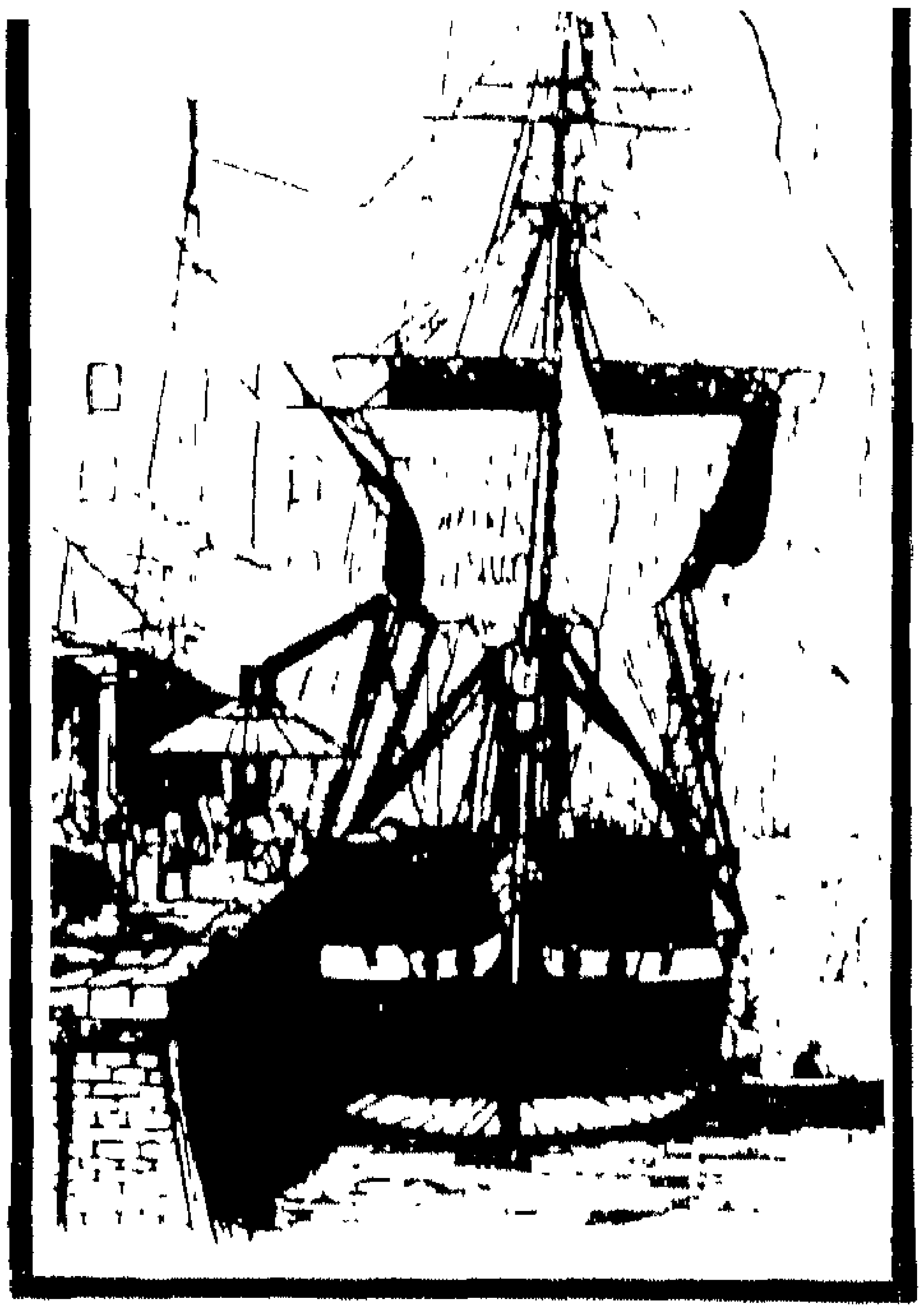

سلطانة فى نيويورك ١٨٤٠

فى صباح الخميس ٣٠ من ابريل ١٨٤٠ ظهرت فى الافق سفينة تتهادى فوق سطح الماء مبتعدة قليلا لتفادى اللسان الرملى الذى يدور عند طرفه مصباح مضىء ليحدد مدخل مرفأ نيويورك.

كانت هذه السفينة هى (سلطانة) السفينة التى ابحرت من زنجبار كأول سفينة عربية، متجهة الى نيويورك وكان على السفينة ستة وخمسون من الرجال الاشداء، كانت لحاهم مطلقة غير مشذبة ، بعد شهور طويلة امضوها فى رحلة بحرية متواضعة ليس فيها اية وسائل للراحة او المتعة.

وفيما عدا اثنين من الفرنسيين اللذين كانا ضمن طاقم السفينة ، كان الملاحون جميعا اما من عسكر البحارة المسلمين الذين جلبوا من سواحل كونكان ومالابار في غرب الهند، وبعضهم كان من الرقيق ذوى الاصل الافريقى:

كان يقود السفينة الى نيويورك بحار انجليزى يدعى وليام سليمان الذى عمل من قبل فى البحرية الملكية ، وفى سانت هيلانه اشترى سليمان كميات كبيرة من الخمور لاستهلاكه الشخصى اثناء رحلة عبور المحيط الاطلسى ، وقد حكى انه اخذ يشرب مما اشتراه من سانت هيلانه حتى بلغ اعلى درجات السكر، وظل ثملاً مستلقيا فى فراشه لايقوى على الحركة او التفكير لمدة ثمانية أيام لولا ان تدارك الامر احد ضباط السفينة الذى تذكر حديثا بين قبطانين امريكيين ان خير طريق للوصول الى نيويورك هو الاتجاه الى الشمال الغربى مباشرة .. وقد نجح فى قيادة السفينة تجاه الشمال.

وكان على ظهر السفينة اوروبى اخر يدعى جون البرتغالى يعمل طاهيا وخادما على السفينة ، واتصف هذا بالخسة والدنائة وخفة اليد ، ولتكتمل الصورة كانت هناك سيدتان انجليزيتان احداهما مسز روبرت نور ثورزى زوجة احد التجار الانجليز فى مسقط ووصيفتها مسز شارلوت طومسون.

ووسط هذه المجموعة المتنافرة كانت هناك شخصية كبيرة لرجل عربى بدين قصير ذو لحية طويلة، وهو احمد بن نعمان حيث علت رأسه عمامة زاهية الالوان. ولف وسطه بحزام من قماش الكشمير وفوق سرواله وقميصه الابيض الناصع لبس قفطانا جميلا اسود اللون.

ولسرعان ما دهش رجال الميناء عندما تقدم اليهم هذا الرجل العربى ، يحدثهم بالانجليزية المتقنة ، ويعلن عن اسمه احمد بن نعمان ، ووظيفته الممثل الشخصى لسعيد بن سلطان حاكم مسقط وزنجبار وتوابعهما ، وقد جاء فى رحلة طويلة دار فيها حول نصف العالم تقريبا لكى يصل الى الولايات المتحدة الامريكية.

فكرة الرحلة

ابتدأت فكرة الرحلة فى ذهن السيد سعيد حاكم مسقط وعمان بفكرة تنشيط تجارة بلده بارسال سفينة الى الولايات المتحدة ، وساءل نفسه هل يمكن ان ينمي ارسال مثل هذه السفينة الاتصالات التجارية المباشرة ، لكى لايستمر الاعتماد فى التجارة مع الولايات المتحدة على السفن الامريكية التى تأتى الى زنجبار بالبضاعة وتحمل منها البضاعة الى امريكا ؟

وقد شجع التساؤلات التي اثارت الفكرة في ذهن السيد سعيد وساعد على ذلك ان اسطوله الذي يتكون من عشرين سفينة ، مختلفة كان يجوب المحيط الهندي فقط بحثا عن التجارة في اوقات السلم . وكان السيد سعيد مترددا في تنفيذ الاقتراح بسبب عدم وجود القبطان المناسب الذي يعرف الطريق الى امريكا . وفي اوائل اغسطس عام ١٨٣٩ اعلن السيد سعيد عن نيته في ان يرسل السفينة «سلطانة» في هذه المغامرة .

واختار السلطان سكرتيره الخاص احمد بن نعمان بن محسن بن عبدالله الكعبي البحريني ، الذي ولد في البصرة في عام ١٧٨٤ ، وبدأ حياته كغلام يخدم على ظهر سفينة ، وقد اظهر في عمله ذكاء وقدرة نادرة جعلته يترقى سريعا في اعماله البحرية ، وقد التحق احمد بخدمة السيد سعيد في مسقط ، ويقال انه سافر الى الصين والى مصر والى اوروبا في مهمات عديدة ممثلا لسيده .

وهكذا اصبحت السفينة مستعدة للسفر في اوائل فبراير ١٤٨٠ لتعبر المحيط الاطلسي متجهة الى نيويورك .

سلطانة في نيويورك

كانت نيويورك عام ١٨٤٠ حينما وصلتها السفينة سلطانة مدينة فتية بهية صاخبة مليئة بالنشاط والحيوية ، ولقد تضاعف عدد سكانها حتى بلغ ٣٢٠ الف نسمة ،وكانت تصدر في نيويورك آنذاك عشر جرائد يومية ، وفي ظل هذه المدينة وصل أحمد مبعوث السيد سعيد ، فأعطى وصوله أهالي نيويورك مادة جديدة للاثارة ، وفرصة جديدة للمشاهدة والمتابعة والتعليق ، ويذكر البعض ان اهالي نيويورك قد وجدوا في حضور احمد اثارة اكثر من اثارة زيارة الراقص النمساوي ، وجولات الهولنديين بسراويلهم القصيرة في حفلات الرقص .

كان لخبر وصول أحمد وقعا غريبا على اهالى نيويورك ، فاهتمت به صحيفة الهيرالد الصباحية المشهورة ، وكذلك جريدة نيويورك بريس ، وقالت الهيرالد (انها مفاجأة مثيرة حقا لنا نحن الامريكيين) وشبهت السيد سعيد بشخصية محمد على فى مصر ، اما جريدة البوست المسائية فقد نشرت انباء عن المساعدة التى قدمها السيد سعيد للسفينة الامريكية بيكون ، واضافت انه لا يوجد فى العالم المسيحى من يتصف بالاخلاقيات السامية التى اصبح العالم ينظر اليها باعجاب وتقدير .

وانتشرت اشاعات فى نيويورك مفادها ان من بين الهدايا الملكية التى ارسلها السيد سعيد الى رئيس الولايات المتحدة جاريتين شركسيتين تتميزان بجمال فائق ، ولعل هذه الاشاعة قد ترددت نتيجة لظهور السيدتين الانجليزيتين على ظهر السفينة « سلطانة » بجوار قمرتهما تحت حراسة قوية . كما ثارت الاشاعة التساؤلات العديدة عما يمكن ان تفعله الدولة بهاتين الجاريتين ، وذكرت احدى الصحف بانه لابد من بناء جناح خاص فى الكونجرس لتودع فيه مثل هذه الهدايا من الفتيات الجميلات ، ويخصص لذلك مكتب فى وزارة الدولة .

وبمجرد ان شاعت اخبار وصول السفينة العربية اندفع الكثير من أبناء نيويورك الى رصيف الميناء حيث تجمهروا لالقاء نظرة على السفينة العربية ومشاهدة طاقمها العربى غير المألوف لديهم ، ولم يرق للبحارة ان يأتى الناس لمشاهدتهم ، فتركوا ظهر السفينة ولجأوا الى ممراتها الجذابة ، وقد دفع الفضول بعض الافراد الى الاقتراب منهم وجسوا لحاهم للتأكد من انها طبيعية غير مستعارة ، وقالت جريدة الهيرالد (كان العرب ينظرون حولهم ، ويبرمون اشنابهم ويستغربون من نظرات التعجب التى تبدو على وجوه الامريكيين) وكثيرا ما كان الامريكيون يغررون ببعض البحارة ويدعونهم الى تناول الشراب معهم فى اركان المدينة ، ولما لم يكن اى من افراد الطاقم قد اعتاد شرب المسكرات فانه قد وقع كثير من حالات السكر الخطيرة ، وعلى سبيل المثال حسب ما ذكرت جريدة نيويورك سيجنال ان احد البحارة وصل الى السفينة وهو يترنح ويصيح ، فلما رآه احد كبار السن من ذوى اللحى البيضاء الطويلة اخذ يوبخه على المنكر الذى ارتكبه وحذره من هذه التصرفات .

ولقد اقيمت المآدب لاعضاء السفينة وقاموا بجولات فى مدينة نيويورك ، ولقد حظى احمد رئيس البعثة باعجاب الجميع ، ولقد سئل احمد عن رأيه فى المرأة الامريكية ومقارنتها بالمرأة العربة من حيث الجاذبية ، فتصدى للدفاع عن المرأة العربية بأدب ورقة .

وركب الضيوف العرب القطار فخرج المزارعون من كل صوب ليشاهدوا العرب ، كما اقيمت الحفلات والمآدب على شرفهم ، وقالت جريدة الهيرالد (اثار العرب منذ ان جاءوا الى هذه البلاد الكثير من الاهتمام والعطف ، وقد شاهدوا كل شىء ، وزاروا اماكن كثيرة غمرتهم بمختلف انواع الهدايا ، ع ان ما رأوه لا يثيرهم لدرجة الدهشة ، اذ يبدو ان من طبيعتهم الا يذ

دهشتهم شيء ، غير انهم ابدوا الرضا على ما لاقوه من اهتمام ، وكانوا دائما على استعداد للتحدث وهم باسمون واعينهم ناظرة الى كل شيء باهتمام .

وعلى الرغم من انشغال احمد بتلبية الدعوات وحضور الحفلات التى تقام لتكريمه فى امريكا والتى وجد نفسه غير قادر على احتمالها ، فقد كان دائم التفكير فى المهمة التجارية التى اتى من اجلها ، فلقد حملت سلطانة التالى :
١٣٠٠ جوال من البلح ، ٢١ بالة من السجاد الايرانى ، و١٠٠ بالة من بن مخا ، و١٠٨ قطع من سن الفيل ، و٨١ حقيبة من الصمغ العربى ، و١٢٥ كيسا من القرنفل ، و١٠٠٠ قطعة جلد مجففة غير مدبوغة .
وبيع القرنفل بسعر يتراوح بين ١٩ و٢٠ سنتا للرطل ، اما الصمغ فبيع بسعر يتراوح بين ٢٣ و٢٦ سنتا للبرميل الواحد ، وبيع التمر بسعر يتراوح بين ٤،٥،٣ سنتات للرطل اما العاج فبيع بمبلغ ٧٥ دولارا للسن الواحد ، اما القهوة والسجاد العجمى فقد كانت بضاعة شبه كاسدة ، حيث بيعت القطعة بحوالى ستة دولارات اما البن فقد بيع بسعر ٢٠ سنتا للرطل وبذلك بلغت مبيعات سلطانه ٢٦١٥٧ دولارا .
واما المشتريات لسلطانه فقد كانت تتكون من الاقمشة والخرز والبنادق والبارود والاطباق بالاضافة الى المرايا وورق الكتابة والسكر والعطور والحلوى .. وبلغ الفرق بين المبيعات والمشتريات ٤٠٠ دولار هى صافى المكسب من الرحلة .

مسألة الهدايا

لقد احضر السيد أحمد هدايا السلطان سعيد والتى أثارت ضجة كبرى ، كانت الهدايا مكونة من فرسين من خيول السباق النجدية ، وعقد من اللؤلؤ ، وحبتين كبيرتين من اللؤلؤ ، الواحدة منهما فى حجم وشكل الكمثرى الكبيرة ، وحوالى ١٢٠ قطعة من الاحجار الكريمة ، وسبيكة من الذهب الخالص ، وسجادة حريرية فارسية الصنع وزجاجة من عطر الورد ، وبعض ماء الورد ، وست عباءات كشميرية مطرزة وسيف مرصع بالذهب .
وهنا ثارت قضية مسألة قبول الرئيس الامريكى (فان يورين) للهدايا الشخصية ، ووضع الرئيس الامريكى فى موقف حرج بالنسبة لقبوله الهدايا .. خصوصا وان سلطان مراكش كان قد ارسل اسدين هدية للرئيس الامريكى .

ولكى يتخلص الرئيس الامريكى من هذا المأزق احال الموضوع برمته الى الكونجرس ليثير قضية قبول الموظف الحكومى الهدايا من الدول الاجنبية .. الا ان هذا القرار اثار لدى الامريكيين عاصفة من النقاش الطويل حول قبول الهدايا او رفضها .. وقال احد المعارضــين فى الكونجـرس : انه لم يسبق للكونجرس ان وافق على السماح بقبول مثل هذه الهدايا من الدول او القوى الاجنبية .

ودارت صراعات ومناورات برلمانية حول قبول او رفض الهدايا العربية ، وباستخدام كل وسائل المناورات البرلمانية لتهدئة الموقف والمناقشات ، قبل فى نهاية الامر بقبول الهدايا التى قدمت للولايات المتحدة من سلطان عمان وامير مراكش .. فبيعت الخيول .. واودعت باقى الهدايا فى متحف الولايات المتحدة القومى .

الاستعداد للعودة

انتهت اصلاحات السفينة سلطانة ، وتقرر استبدال وليم سليمان بكابتن امريكى ، وتم اهداء السلطان سعيد قاربا وبعض المسدسات والبنادق بالاضافة الى مرآة وبعض الشمعدانات وبعض الهدايا الاخرى من بعض الهيئات مثل ترجمة بالعربية للكتاب المقدس وارسل محل أدوية حلويات طبية كدعاية للمحل .. وفى اغسطس اطلقت سلطنة ثلاثة صفارات وهى تغادر نيويورك فى رحلة العودة .. وهى رحلة طويلة .. انتهت بوصولهم الى رأس الرجاء الصالح فى ٣٠ اكتوبر .. وفى ٨ ديسمبر وصلت سلطانه الى زنجبار .. وبهذا كانت سلطانه هى أول وآخر رحلة تقوم بها سفينة تحمل علم عمان وزنجبار القرمزى اللون الى سواحل امريكا .

من كوبنهاجن
إلى صنعاء

بالصدفة حصلت على هذا الكتاب .

ومنذ زمن بعيد كنت ابحث عنه .. ليس عن هذا الكتاب بالذات ، ولكن عن قصة البعثة الدنماركية العلمية التى قام بها العلامة الشهير نيبور مع اربعة علماء الى بلاد اليمن السعيدة بين عامى ١٧٦١ ـ ١٧٦٧ ميلادية .

ومن كوبنهاجن الى صنعاء كتاب اعده توركيل هانسن يروى الجوانب الخفية لقصة اول بعثة علمية جدية بعثتها اوروبا الى بلاد اليمن . هذه البعثة التى عاشتها سنوات تجمع الالاف من العينات النباتية والمخطوطات واسرار الكتابة المسمارية ويرسمون اروع الرسوم الفنية ضمن هدف اساسى كانت تهدف له اوروبا وهو البحث عن مناطق النفوذ والثروة تحت شمس العالم .

كانت البعثة الدنماركية الى اليمن السعيدة (تجسم ذلك الشوق المستحكم لدى سكان شمال اوروبا نحو ارض سعيدة ، في اى مكان في الجنوب ، الشوق الذى ينبعث ويتحرك ، لكنه حينما يصل الى الغرض المقصود يصبح حبا للاستطلاع .

كانت رحلة البعثة، او بمعنى اصح فترة البحث عن الرجال والاعداد للبعثة قد استغرقت خمسة اعوام ، وتألفت البعثة من ستة افراد هم : فورسكال عالم نباتات ، فون هافن عالم لغويات ، نيبور (مساح أراض)، بورنغانيد رسام ، وكيرامر طبيب ، وبرجرن خادم. تحدوهم الاشواق الى احد الأماكن الذى يحمل احد الاسماء السحرية .. الى الارض التى سماها الاسكندر العربية السعيدة ، لأنه فشل فى غزوها .

ابتدأت الرحلة في يناير ١٧٦١ وبعد سبع سنوات كأنها الدهر انتهت الرحلة الحزينة .. ولم يعد من الرجال الستة الى الدنمارك الا واحد فقط في نوفمبر ١٧٦٧ .

كانت تلك البعثة اول بعثة ترسلها دولة الى اليمن ، واهم بعثة ترسلها اوروبا حتى ذلك الوقت ، الذي فيه شغلت العلوم والاكتشافات عقول الاوروبيين الى درجة جعلت ذلك الملك يولى البعثة اهتماما كبيرا رغم مشاغله بسبب الحروب الاوروبية .

كانت البعثة تمزقها صراعات افرادها والامراض والجهل والموت وكانت الرحلة سرا لم يكشف عنه الا بعد اسبوع من سفرها متوجهة الى البحر الابيض المتوسط الى القسطنطينية وهناك ترحل البعثة عبر مصر الى العربية السعيدة .

طبعا بالاضافة الى الروح الاستعمارية التى كانت تسود في تلك العصور اوروبا، فان ملك الدنمارك كانت تحدوه تقاليد ذلك العصر من مساندة ودعم للفنون والعلوم ، حث نجد ان فريدريك الاكبر ملك بروسيا يقضى اوقات فراغه في مناقشات فلسفية مع فولتير وفي العزف بالناى مع باخ ، اما فردريك ملك الدنمارك فاعتبر هذه البعثة هى كسبه للمستقبل ، حيث كانت لديهم الرغبة في ان تعيش ذكراهم بعدهم بوقت طويل ، لأن سذاجتهم كانت كافية لان توجد لديهم بعض الاحساس نحو التاريخ والوقت فلذا بنوا القصور واستدعوا شاعرا ليكمل قصيدة عن المسيح واستقبلوا العلماء وأنشأوا المتاحف ومعاهد الفنون وشجعوا العلوم .. والذى يزور اوروبا حاليا يشاهد ما خلفوه لنا من حضارة .

ابتدأت الرحلة وكانت توصيات الملك الاخيرة تتضمن ٤٣ نصيحة منها : ان تلاحظ وتدرس كل شيء/ ان يتعلموا اللغة العربية / يسجل كل منهم ذكرياته / على كل منكم التعامل مع (المحمديين) في حذر شديد واحترام دينهم ، وعدم التصرف مع نسائهم بحرية كما يتصرف مع النساء الاوروبيات/ عليهم الاجابة على الاسئلة التى وضعها العلماء/ عليهم الاهتمام بأي شيء اثرى/ عليهم معرفة حجم السكان وخصوبة الارض ، وتأثير تعدد الزوجات والى العلاقات بين الرجل والمرأة/ تقاليد وعادات اهل البلاد حتى سؤال هل : يجد الرجل المختون متعة جنسية اكبر من الرجل غير المختون).

كانت الرحلة ليست عذابا خارجيا بل عذابا داخليا بين رفاق الرحلة انفسهم بسبب خلفياتهم المختلفة وبسبب امزجتهم وبسبب مسئولياتهم .. وبسبب طول الرحلة التى عانوا من جرائها الكثير حتى وصلوا الى اليمن السعيد .. وفي رحلة السفينة من تركيا الى القاهرة وجد اعضاء البعثة انفسهم بصحبة (سلعة غير مألوفة في الموانىء الاوروبية ، لقد كانت حمولة من النساء الجوارى) واصطدم احد اعضاء البعثة في النقاش مع كاتب السفينة المسلم ، حيث اعلن (فون هافن) في تهور الى ان الديانة المسيحية افضل واحسن من الديانة المسلمة ، فلقد وقف الكاتب المسلم في الحال وغادر الجمع بعد ان اعلن لهم بان من يعتقد في آله غير (الله) فهو لابد ان يكون اما ثورا او حمارا .

كان التهديد بالموت عاملا مسلطا عليهم .. من خلال الامراض والاوبئة .. ومن قبل مواطنى البلدان الاجنبية ، والتهديد الداخلى من خطط الانتقام لزميل حانق ، وقد القت عليهم هذه التهديدات ظلا من الكآبة واصبح هذا الظل هو الحقيقة الوحيدة لمنع وجودهم حتى قبل وصولهم الى اليمن السعيد . تلك البلاد التى فاجأتهم كالبرق الخاطف !

لقد اختل خط سير الرحلة فبدلا ان يظلوا في مصر شهرا واحدا مكثوا فيها اكثر من سنة يجمعون ويصفون حياة الناس والبلاد والطبيعة والاثار وهذه حادثة جرت لينيور الذى يقول :

كان من بين الحضور تاجر تركي ، لاحظ انى وجهت آلتى الفلكية نحو المدينة ، فسلبه الفضول عقله واصر على ان اسمح له بالنظر من خلال عدسة الالة ، وما ان رأى من خلال العدسة ، حتى ظهرت على ملامحه علامات الاضطراب والانزعاج ، فقد شاهد احدى القلاع وقد انقلب عاليها سافلها . وفى الحال شاع بين الناس انى جئت الى الاسكندرية بغرض ان اجعلها تقف على رأسها بدلا من رجليها ».

اما الحكاية الثانية فقد كان نيبور يأخذ بعض قياسات ارتفاع الشمس ، فاذا بأحد الفلاحين يقترب منه ويبدى اهتماما زائدا بعمله ، فسمح له نيبور بالنظر من خلال الالة ، ولما رأى المدينة وقد قلبت رأسا على عقب تملكه رعب شديد ، وسأله خادم نيبور ما عسى يمكن ان يكون السبب في هذا فأجاب عليه : بأن الحكومة مستاءة جدا من سكان هذه المدينة ، ولهذا ارسلت نيبور ليقوم بتدميرها فحزن الفلاح لسماعه هذا الجواب ، ورجا نيبور الانتظار حتى يستطيع ان يذهب ويبعد زوجته واولاده وبقرته عن مكان الخطر ، فأكد له الخادم ان لديه من الوقت ساعتين فاندفع الفلاح كالريح نحو بيته .

كان نيبور وبعض افراد الرحلة يقومون بواجبهم العلمى في مصر فوصفوا مدينة القاهرة واحياءها ومساجدها وميادينها وسكانها وعاداتهم واخلاقهم والالعاب .. وحتى انهم رسموا فتاة شابة مختونة وفرها لهم احد الاثرياء ، كما استطاع اعضاء البعثة التعرف على ما لا يقل عن ١٧٤ مدينة صغيرة بين القاهرة ودمياط وعملت اول خريطة عن مصر ونسخوا المخطوطات الهيروغليفية .. لكن هذه الاعمال لم تكن بالبساطة فالجمهور الجاهل المحب للاستطلاع الخائف من الغريب تظهر عليه علامات الاستغراب والغضب .. والتهديد باستعمال الضرب .

وبعد اكثر من سنة خلفت البعثة وراءها القاهرة آخر مظاهر الحضارة الاوروبية وبدأت الرحلة الحقيقية وسط الامراض وصراعات افراد البعثة حيث ذهبوا الى صحراء سيناء ولكن نتيجة الرحلة كانت فاشلة ، فلم يعرفوا شيئا عن جبل سيناء ..

وكـان السؤال الصـامت : لماذا اليمن السعيـد ؟ وفي امسية التـاسـع والعشرين من ديسمبر لعـام ١٧٦٢ ، وخلال الذكـرى السنويـة الثانيـة لمغادرتهم كوبنهاجن وطئت اقدامهم لاول مرة تربة اليمن السعيد . والسؤال يرفرف عـلى شفاههم لمـاذا اليمن السعيد ؟! لقـد استقبلهم حاكم مـدينة (اللحية) خير استقبال واعتبرهم ضيوفا وذبح لهم خروفا ، كما اراد الحاكم ان يدفع لربان السفينة اجرة ركوبهم على الباخرة مما دعا نيبور الى التساؤل قائلا : فيما اذا كان يمكن ان تحدث مثل هذه المبادرة الطيبة من قبل السكان الاوربيين لمسافرين من العرب الى مكان في اوروبا .

وفي اليمن طلب فورسكال من موظفي الجمرك ان يحضروا له قملة حية ، وسوف يدفع لهم مالا مقابل تلك المخلوقة وعندمـا كشف عليها فـورسكال بالمجهر وشاهدها الناس علق موظف الجمارك الذى احضرها وهـو يقسم اليمين في غضب بأنه لم يشاهـد قملة عربيـة في مثل هـذا الحجم ، وانها بالضرورة قملة اوروبية .

وكانت نظرة الاوربي لحياة العربى انذاك نظرة رومانسية كمـا يبدو ، حيث الانسان العربى قنوع بالاشياء الصغيرة والعرب يعيشون حياتهم كما يشربون القهوة ، قانعين برشفة منها بـين الفينة والفينـة ، انهم ضيوف القدر .

وضعت البعثة اول خريطة لليمن ، استفيد منها لاكثر من قرن كأساس لاكتشافات اوربية جديدة في اليمن واكتشفوا نباتات جديدة وكـان الناس يستقبلونهم بالدهشة متسائلين دون ان يفهموا كيف يصرف المرء الكثير من المال دون ان يجنى من وراء ذلك اى فائدة .

الا ان الحمى ابتدأت تهاجم الواحد تلو الاخر فهاجمت نيبور وكان هافن مريضا في معدته . لقد اصابتهم الملاريا دون ان يعرف حتى اسم مرضهما الا ان البعثة واصلت مسيرتها حيث عبروا الصحراء متوجهـين الى المخا وعندما وصلوا اخبرهم الحراس ان ركوب اليهود والمسيحيين الحمير داخل المدينة ممنوع اما رجال الجمارك فقد مزقوا العينات التى جمعتها البعثة من حيوانات ونباتات، كما انتشرت اشاعة في المدينة بأن الاوربيين ، قد وصلوا الى اليمن بقصد تسميم المسلمين بسم الثعابين فتم طردهم من المدينة بعد ان تم بعثرة حاجياتهم .

اما فون هافن فقد بدأ يهذى عن كل شىء، تارة بالعربية واخرى بالفرنسية واحيانا بالايطالية والالمانية والدنماركيـة ، وظل هكذا حتى مـات مساء . وغادرت البعثة متوجهة الى مدينة تعز تصحبها الاشاعات بـأنهم يحملون معهم صناديق مليئة بالثعابين الحية وهنا انفضت الملاريا على فورسكال حيث توفى بعد شهر واحد من وفاة فون هافن وكانت حالة الاخرين ايضا في تدهور وكان الناس يرفضون دفنه في بلدهم لانه رجل مسيحى فدفن في الليل بشكل سري وفقدت البعثة احد اهم رجالها ..

ثم وصل باقى اعضاء الرحلة الى صنعاء حيث استقبلهم الامام استقبالا جيدا واستقروا هناك مدة ودرسوا كل شىء فيهـا الا انهم قرروا الرحيـل السريع وعادوا مرة اخرى الى المخا حيث هاجمتهم الملاريا حيث حمل ثلاثة منهم الى ظهر السفينة ومات الهر يورنعكنيد ولحقه الخادم سرجرن وبقى اثنان من اعضاء البعثة حيث غادروا اليمن حتى دون الاجابة على سؤال (لماذا كان ولا بد من ان تدعى هذه البلاد بالعربية السعيدة . اما كريستيان نيبور فلم يستخدم ابدا مرة ثانية التعبير الوصفى : العربية السعيدة بل كان يدعو هذه البلاد : اليمن).

الشرق في عيون الغرب

« الروس قادمون » شعار رفع فى الحرب الباردة بين القوتين العظميين . ودخل اصطلاح « الوصول الى المياه الدافئة » ضمن المصطلحات السياسية الحديثة ، أى الوصول الى الشرق . ولكن متى بدأ الروس يهتمون بالشرق .. وأى شرق كانوا يهتمون به .. وبماذا كانوا يهتمون ؟! ولنقرأ » .

من المضحك ان لاعتناق الروس الدين المسيحى ، أثره البالغ فى تقوية العلاقات مع الشرق ، مدفوعين بعاطفة دينية ، يسلكون طريقا طويلا وشاقة للوصول الى فلسطين ، وكانت « مسيرة » الحجيج تعكس فى بدايتها أثرا أدبيا ينطلق بشكل ذاتى وغير مدروس من خلال (ملاحظات وانطباعات ساذجة وبسيطة عن حياة شعوب الشرق الاوسط ، ثم تطورت واصبحت موجهة لاغراض معينة) .

والشرق الذى هو الآن يسمى الشرق الاوسط ، كان يطلق عليه الروس مصطلحات كثيرة منها الشرق الادنى والشرق القريب وآسيا الادنى القريبة ، ويبدو واضحا من خلال كتاب (الرحالة الروس فى الشرق الاوسط) تأليف ب . م . دانتسغ/ ترجمة وتعليق د . معروف خزندار ، ان اهتمامات الروس فى تلك الايام وحتى بدايات القرن العشرين كانت تنصب وبشكل أساسى على الجار التركى وفلسطين والشام ومصر ، أما الجزيرة العربية والخليج فنادرة الرحلات والكتابات عنها .

كان العامل الدينى وهو زيارة الديار المقدسة فى فلسطين الدافع للكتابات الشرقية الاولى للكتاب والرحالة الروس ، ثم تطور حتى وصل ذروته العلمية بانشاء الجمعية الجغرافية الروسية فى عام ١٨٤٥ والتى وضعت من واجباتها الرئيسية دراسة البلدان المجاورة لروسيا . وكل ما كتبه أولئك الرحالة من دبلوماسيين كانت تتنبأ بمصير الدولة العثمانية وانحطاطها ..

ماذا يقول الرحالة الروس عن الشرق ؟

لنواصل القراءة ..

تغير الزمن

لقد تغير كل شىء فى الوقت الحاضر فى تركيا ، فالسلطان والباشوات يفكرون فى مصالحهم ومنافعهم فقط ، وهم يضاعفون مبالغ الخزينة ويهتمون بها قبل كل شىء آخر ، أما اذا قلنا لماذا ، فالجواب غير معروف ، وهم يخفون الذهب فى الصناديق ، ولا يمنحون الرواتب للجيش . ولا استقرار فى البلاد ، أما الحقيقة والصدق فهما شيئان مفقودان فى الدولة ، والسلطان ينهب الموظفين ، والموظفون ينهبون الشعب ، وهكذا هناك السلب والنهب والموت والقتل فى كل مكان .

هذه هى تركيا القرن السادس عشر من وجهة نظر السفير الروسى أما تولستوى (وهو الجد الأكبر للكاتب الروسى الشهير تولستوى) فيكتب فى تقريره عن زيارته لتركيا بأن الاتراك : يسلطون ظلما قاسيا على الرعايا اليونانيين ، لقد أشاعوا فيهم الخوف الى درجة بحيث لا يجرأون حتى فى الخيال على القيام بعمل ما ضدهم .

ويواصل تولستوى حديثه عن السلطان التركى وهو مصطفى الثانى قائلا بأنه : منح جميع سلطاته الى الوزير الكبير ، والوزير الحالى شخص ذكى يفكر بعمق ويظهر السلطان بشكل اعتيادى فخورا ومعتدا بنفسه ، وهو لا يميل الى المحاربين ، ولا الى الامور الدينية ، ولا الى ادارة الوظائف الى الحد المطلوب ، انما يقضى أوقاته داخل بيته ، حيث يحتفظ بنساء كثيرات يلهو بهن .. ويعنى جميع الوزراء الترك بثرائهم الشخصى اكثر من أى شىء آخر .

وترد فى كتاب أحد الرحالة قائمة استهلاك سراى السلطان التركى من اللحوم فقط وهى كالتالى : أكثر من اربعين الفا من الثيران الطرية والمملحة المكبوسة فى السنة الواحدة ، وعلى المتعهدين ان يزودوا القصر فى كل يوم بمئتى دجاجة ، ومئتى زوج من فروخ الدجاج ، ومئة زوج من الحمام ، وخمسين أوزة ، ونفس العدد من الديك الرومى .

ومن طرائف هؤلاء الرحالة . قصة التاجر الروسى بارنيشكوف الذى صار رحالة رغم أنفه ، وذلك حينما وصل الى كوبنهاجن لأعمال تجارية ، وشوهد فى حالة سكر ، فقبض عليه رجال الاستخبارات ، وسلموه الى احدى السفن ، وأصبح هناك ضحية لتجار الرقيق الاوربيين ، وخلال سبع سنوات عمل خادما فى الجيش الدنماركى ، وعمل عبدا فى المزارع الاسبانية فى الهند الشرقية ، وأسيرا على يد القراصنة الاتراك فى فلسطين . وحمالا فى اسطنبول ونجارا فى سفينة يونانية ، وانكشاريا فى قصر السلطان ، ثم هرب ، ويقول عن القوانين التركية فى سوق المواد الغذائية : اذا نقص الوزن المقرر ولو بمقدار عشرة دراهم فى الرغيف الواحد ، فان المندسين الذين يرسلون للمراقبة يجرون الفاعل من أحد اصابعه ، حيث يرافقهم جلاد يقوم بقطع الاصبع بدون أى حكم قضائى ، ويقال بأن الايدى والاصابع مذنبة .

ألف ليلة تركية

أما دبلوماسى روسى آخر فيروى كيفية استقبال الدبلوماسيين فى تركيا العثمانية حيث قام المندوبون : بتبديل الغليون للكونت ثلاث مرات ، وقدموا

له القهوة مرتين ، وخلال الحديث والمناقشة قدموا له عصير الفواكه ، والمربى ، والشيكولاتة ، ثم بدأوا يرشون ماء الورد على الحاضرين ، وفى نفس الوقت كانت رائحة البخور قد ملأت الجو ، وبكلمة واحدة ، انهم حاولوا ان يطبقوا جميع تقاليدهم ، وان يريحوا حاستى الشم والذوق عند الحاضرين .

أما حاشية السلطان فحياتها تتجاوز الف ليلة وليلة ، يقول أحد الرحالة الذى حضر مأدبة لاحد رجال الحاشية ، فيكتب وصفها لزوجته قائلا : لأجل ان أصور لك الطبائع الآسيوية الممتازة ، ينبغى التكلم عن الغداء عند القبطان باشا ، وهو رجل شاب من المقربين الى السلطان والمحسوبين عليه ، ومتزوج من أخت السلطان ، وهو رائع ولا يبالى بصرف المال ، وهو مدين بثلاثة ملايين من القروش ، وهو لين لطيف ، وكانت المفروشات عنده والملابس التى كان يرتديها الناس جديدة ، وأما عدد الخدم فيقارب الالف وهم يلبسون الديباج ، والابسطة قرمزية اللون ، ومخملية ناعمة موشاة بالذهب ، والارائك مطعمة بالاحجار الكريمة ، والخدم المقربون يتزينون بمخشلات كثيرة من الماس، وتكتمل صورة الدولة العثمانية فى تحولاتها الى الرجل المريض حيث نجد هذا الوصف للوضع فى تركيا ١٨٦٦ فى مذكرت احد اعضاء بعثة السفارة الروسية :

ان ديون الدولة عبارة عن أفعى هائلة تلتف حول جميع انحاء الامبراطورية التركية ، وهى سوف تخنقها بدن شك عاجلا أم آجلا ، فالضرائب الجمركية كانت مرهونة ، ومناجم الفحم الحجرى فى آسيا الصغرى كانت مرهونة ايضا ، ونقود جيوب اتباع السلطان ، وبعبارة اخرى جميع الارباح التى تأتى من جزر رودس وفيوس وقبرص كلها مرهونة ، جميع القصور والغابات والمناجم والمقالع والمجوهرات والامتيازات الاحتكارية وبقية مدخولات الدولة ، كل هذه مرهونة لدى الرأسماليين فى القسطنطينية وأزمير ومانشيستر ولندن ، أما السلطان والأمة والدولة ، فانهم غارقون فى الديون الى أذانهم ، وهذا الدين ينمو وينمو ، وهو مستمر فى نموه ، ولكن من الذى يدفع ، وأى دخل يستطيع ان يغطى هذه الفوائد ،كان الصرف على الحريم وعلى بناء جميع هذه القصور وعلى الجيش وعلى الاسطول وعلى البيروقراطية ومن يدفع ؟!

ويلاحظ دبلوماسى روسى بأن الضرائب والاتاوات تخنق الجميع ، وهذا وضع جيد للبيرقراطيين فالقمائمقام يبتز من الشعب جميع ما عنده ليؤمن

حياته ، وان نهب السكان كما يبدو ان الحكومة قد اعتبرته شرعيا .. أما الرشوة فهى عبارة عن الحجر الاساسى لجميع مرافق الادارة التركية .

وكان الاهتمام الروسى بالشرق العربى يأتى فى المرحلة الثانية للرحالة والباحثين والمستشرقين الروس ، ومصر كانت كما يبدو الاولى فى الاهتمامات ، يقول رحالة روسى فى وصفه للقاهرة :

عندما تقترب من مصر تظهر لك غابة مظلمة تشمخ فيها قباب مساجد المسلمين . ولا تنبت فى مصر أية خضرة عدا قصب السكر ، والنخيل ، ولا وجود للبساتين والحدائق ، وذلك بسبب الحرارة التى لا حدود لها .

ويلفت انتباه هذا الرحالة فى قرى مصر اجهزة التفريخ البدائية التى جذبت اهتمامه الى حد بعيد حيث يقول انهم : يبنون ارضية من طين (دكة) فوقها مواقد ، وفى كل دكة اثنا عشر موقدا ، وفى كل موقد صندوق ، وتوضع ٦٠٠٠ بيضة فى ذلك الصندوق الذى على الموقد ثم يحمون الموقد بروث الدواب .. فتولد من هذه العملية افراخ بدون أم .

كما يلاحظ رحالة اسلوبا طريفا لبيع الحليب فى القاهرة ويصفه كالتالى : الظاهر انه فى المناخ الحار ليس بالامكان حفظ الحليب الطازج ولو لمدة قصيرة ، ولذلك السبب فانهم لا يبيعونه فى الاوانى كما هو مألوف عندنا ، وانما يتجول البائعون بصحبة مواعزهم فى الشوارع ويمرون على البيوت يبحثون عن الذين يحتاجون الى الحليب ، ويقومون بحلب الحيوان امام الدار بالمقدار المطلوب !

لقد حظيت مصر بجزء كبير من كتابات الرحالة الروس وبالذات فى عهد محمد على باشا حيث يقول احدهم : شيء واحد فقط يستحق كلية محمد على لقب مصلح مصر ، فقد حول بلدا خصبا ومزدحما بالسكان الى صحراء ! كان هناك فى سنة ١٨٢١ مدن مزدهرة وعامرة ، وقرى مزدحمة آهلة بالسكان ، وهى الآن مهدمة مقفرة هرب سكانها ، وبقيت الحقول غير محروثة وبدن زرع ، وانتشر الفقر والفاقة والرعب والفزع ، فى كل مكان (...) وكانت مصر عبارة عن هذا الشخص وحده ، فهو صاحب الحقل ، وصاحب المعمل ، وهو التاجر .

حدأة هرمة

ويصف احدهم شخصية محمد على الكبير بقوله : لقد سنحت لى الفرصة ان أكون علاقات عملية مع كثير من ذوى المقامات العليا من الترك ، غير اننى لم أشاهد حتى شخصا واحدا من الممكن ، وبأى شكل من الاشكال ان يقارن بمحمد على .. انه لم يتلق أى نوع من التعليم ، ولا يعرف الا انه يتمتع بالشيء الذى لا يستطيع أى تعليم ان يقدمه وهو : الحس المرهف فى جميع القضايا ، ومعرفة الناس ، واتقاد الذهن والقدرة لادراك كافة القضايا الخطيرة ، وكانت له الامكانية والقدرة ان يكون سندا للامبراطورية العثمانية ، اذ ما استطاع السلطان ان يستميله .

ويلخص أحد الرحالة الوضع فى مصر فى عهد محمد على بقوله : الناس يخشون سلطة الرجل الواحد الذى هو كحدأة هرمه مفترسة فى عشها ، تلمح من بعيد فريستها ، انهم يهربون منها الى اعماق الصحراء ، لكن السلسلة الحديدية تدركهم وتغلفهم فى اعناقهم وتقودهم اليها فى القاهرة حيث يتحولون الى جنود جدد .

ويصف أحد الرحالة شق قناة يوسف وهى التى تربط الاقسام العليا فى مصر/ آلاف من الناس ، نصف عراة ، ومن جميع الاعمار ، من تسع سنوات حتى ستين سنة (...) وان أشعة الشمس الحامية المتوهجة ، وضرب السياط ، وانزال الاذى على العاملين ولا سيما على رؤوس الاطفال كانت مذهلة (...) ان نقود محمد على اصطبغت بعرق ودماء فلاحى ومزارعى حوض النيل .

ويقول الضابط الروسى نيكولاى فلاديمتروفيتش الذى زار الشرق عام ١٨٤٦ وهى الفترة الاخيرة من حكم محمد على/ الشعب فى حالة فقر مدقع ، ونائب الملك الذى يملك مصر كمستأجر لها ، لا يعلم عن جميع انحاء البلاد قاطبة أى شيء سوى ممتلكاته الشخصية الخاصة . وبعد موت محمد على كتب هذا الضابط فى كتابه ذى الالفى صفحة .. لا يوجد هناك عربى من الفقراء يعرف أى شيء يتعلق بتحسين ومضاعفة رفاهية السكان . ولم يحدث أى تغيير نحو الافضل فى مصائرهم ، بل ازداد فقرهم نتيجة ازدياد الضرائب المفروضة من قبل الباشا .

قناة السويس عافية القدمين

وكان بناء قناة السويس قد جلب انتباه الاوساط العلمية والاجتماعية فى روسيا ، خصوصا وانه فى عام ١٨٤٥ تم تأسيس الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية ، ولقد كتب أحد الضباط البحريين الروس عن اهمية بناء القناة للملاحة البحرية العالمية ، وبالاخص للملاحة الروسية ، ويقول كاتب روسى حضر احتفالات القناة : اننى لم أشاهد حتى فرنسيا واحدا لم يكن متأكدا مسبقا بأنه عاجلا ، أم آجلا سوف يزيح الانجليز الفرنسيين من البرزخ كما أزاحوهم من الهند ، ويلاحظ صحفى روسى فى الحفل بأن جميع الحراس والبحارة كانوا فى أزياء رسمية حمراء جميلة فاخرة ، غير انهم حفاة ، وان هذه الحلل تعبر بصورة أفضل عن الوضع الحالى فى مصر .

ويواصل هذا الصحفى رحلته عن طريق القناة الى الهند حيث يصف عدن التى احتلها الانجليز (لوضعها الجغرافى الفريد حيث تقع فى منتصف الطريق تماما بين مصر والهند .. وهذا السبب هو الذى حدا بالانجليز بأن لا يحجموا عن النفقات والتكاليف الباهظة لبناء هذه المدينة) .

وعندما تأسست الجمعية الجغرافية للامبراطورية الروسية قال نائب الرئيس فى أول خطبة له : ان كلا من تركيا وفارس ، وهما من جاراتنا القريبات ، لهما مع روسيا تجارة مستمرة ، وعلاقات اجتماعية وسياسية ، ينبغى ان تستمر هذه العلاقات وتتعدد جوانبها يوما بعد يوم بصورة طبيعية وبدون أى تكلف .. ويختتم حديثه قائلا : وان الساحة التى عليكم ان تعلموها هى واسعة ، وموسم الحصاد يوحى بالثراء .

انقناة السويس ـ يقول الرحالة الروسى الشهير فينوكوف ـ هى مهمة جدا لمصر ولانجلترا وفرنسا ، ومفيدة لروسيا ، أما لتركيا التى يسيطر على تجارتها الخارجية الاجانب فهى تسبب العناء والمشاكل أكثر من الفائدة ، ويضيف هذا الرحالة الباحث قائلا : بأن كل خط حديدى جديد يؤسسه الاجانب يصبح قيدا حديديا جديدا لتركيا يفرضه عليها الاصدقاء الغربيون .

شرب الماء والقهوة بالسكر

اما عن بغداد فيقول الرحالة الروسى : لا يوجد هناك أى مسجد فخم من حيث البناء ، ولا توجد منارة أو مئذنة جميلة ، وهى جميعها غير عالية وثقيلة ولا ذوق فى ابنيتها ، والحمامات رديئة وقذرة والاسواق قديمة .

أما الرحالة بارسكى فيجلب انتباهه توزيـع المياه فى دمشق حيث ان كـل شخص يحصل على الماء فى بيته ، وهـو ماء صحى وبـارد للشرب ويقـول بارسكى ومن طبيعة العرب انهم لا يشربون الخمر ، ولا أى شراب مسكر آخر ، وانما يشربون الماء وحده فقط ، ويظهر بارسكى امتعاضه من العرب لعدم شربهم سوى الماء ! ويؤكد ذلك رحالة آخر عنـدما يقـول ان العرب يشربون الماء فقط ، لانهم لا يعرفون صنع شراب حامض من أى نوع كان ، وانهم تعلموا شرب الماء الى حد انه اصبح من العادات المألوفة عندهم .

كما يؤكد سكرتير محمد عـلى لأحد الرحـالة الروس ان الاوربيين لـهم عادات وتقاليد كثيرة ومتنوعة (تختلف تماما عن عاداتنا وتقـاليدنـا وهـى مضحكة كثيرا .. انهم يتناولون الارز بالملاعق ، واللحم بالملاقط ، والانكى من ذلك واكثر مهزلة انهم يقبلون أيدى نسائهم باجلال واحترام ، وهؤلاء النساء يضعن على رؤوسهن قبعات من القش ولا يستعملن غطاء الرأس . وانهم يشربون القهوة بالسكر والحليب . وكانت الملاحظة الاخيـرة مبعثا للضحك والقهقهة عند جميع الحاضرين بمن فيهم الباشا نفسه . وقد أدى هذا الوضع بأحد الواقفين فى وسط الصالون الى ان يصرخ قائلا : كافرلى ! أى انهم كفار !

ويثير العربى الحافى العارى دهشة احد الرحالة الروس أكثر من دهشته لرؤية ملابس التركى الزاهية ، فالعربى لا يعمل أى شىء بدون اغنية ، فانه يؤلفها فى نفس اللحظة التى يقوم فيها بالعمل ، وتكون الاغنية عن الشىء الذى يقوم به ، وهى دليل على سعة قريحته الشعرية والمعلومات السريعة التى حصل عليها فى أفضل مراحل حياته خلال بضعة قرون .

وبرؤية تنبؤية يصف أحد الرحالة وهو يمثل كلية اللغات الشرقية (نظام التعليم الاسـلامى) فى الازهر بقـوله : انهم وبشكل استثنـائى يوجهـون اهتمامهم الى علوم اللاهوت والحقوق ، ويتركون تدريس الجغرافيا والتاريخ والرياضيات والعلوم الطبيعية كموضوعات لا تتصل بالدين .. وان اقتصار الدراسة على علوم اللاهوت والحقوق بهذه الصورة الخارقة سينهك القلوب والعقول ، فهذه العلوم تملأ العقل بالمصطلحات التكنيكية وحدها ، وليست لها علاقة مباشرة بالحياة . ويمكننا ان نلاحظ تخلفا غير اعتيادى عند العلماء المسلمين ، وغياب المبادىء الاولية عن الجغرافيا والتاريخ ولا مجال طبعا للكلام عن العلوم الطبيعية والرياضية .

ويلفت هذا الرحالة النظر الى نشاط البعثات الامريكية (لتربية اطفال المسيحيين الشرقيين من كلا الجنسين) حيث (كان التعليم بجميع اشكاله بالتأكيد موجها فى سبيل تهيئة التابعين من الجيل الناشىء) .

حرب الدروز والموارنة

وعن احداث فترة المذابح بين الدروز والمارونيين فى عام ١٨٦٠ يقول شاهد عيان روسى : انه فى أحسن الاحوال يؤيد الاعتقاد بأنه حصيلة للدعايات بين الكاثوليكية والانجيليكانية المتخاصمتين (...) ومهما قيل عن مذابح سوريا ، الا ان الاسباب لتلك المذابح بدون شك ليس التعصب الاسلامى وحده .

أما الرحالة بيلسيف الذى زار المنطقة فى نهاية القرن التاسع عشر فيلخص نتائج رحلته بالتالى : لاحظت فى جميع مدن الشرق عن طريق الصدفة ابتداء من القسطنطينية وانتهاء بالرمال الصحراوية المقفرة فى شبه الجزيرة العربية ، التغير نحو الاحسن والافضل فى علاقة المسلمين باسم (الروس) فالاسم الروسى أو (موسقوف) الذى يسموننا به فى الشرق أصبح يعنى الاخلاص والرعب للمسلم ، فهو فى الوقت الحاضر لم يعد يقارن الروسى مع الالمانى ، ولا مع الفرنسى ، وكذلك بشكل خاص لا يقارنه مع الانجليزى . ويشير كاتب روسى آخر قائلا : ان كره المصريين للانجليز حولهم الى أصدقاء حميمين لروسيا .

وينتهى كتاب الرحالة الروس ، البداية مذكرات عفوية ساذجة يكتبها بعض التجار ورجال الدين ، وتنتهى بشكل منظم لاستكشاف الجيران من خلال ضباط وباحثين ودارسين كل فى مجال تخصصه .

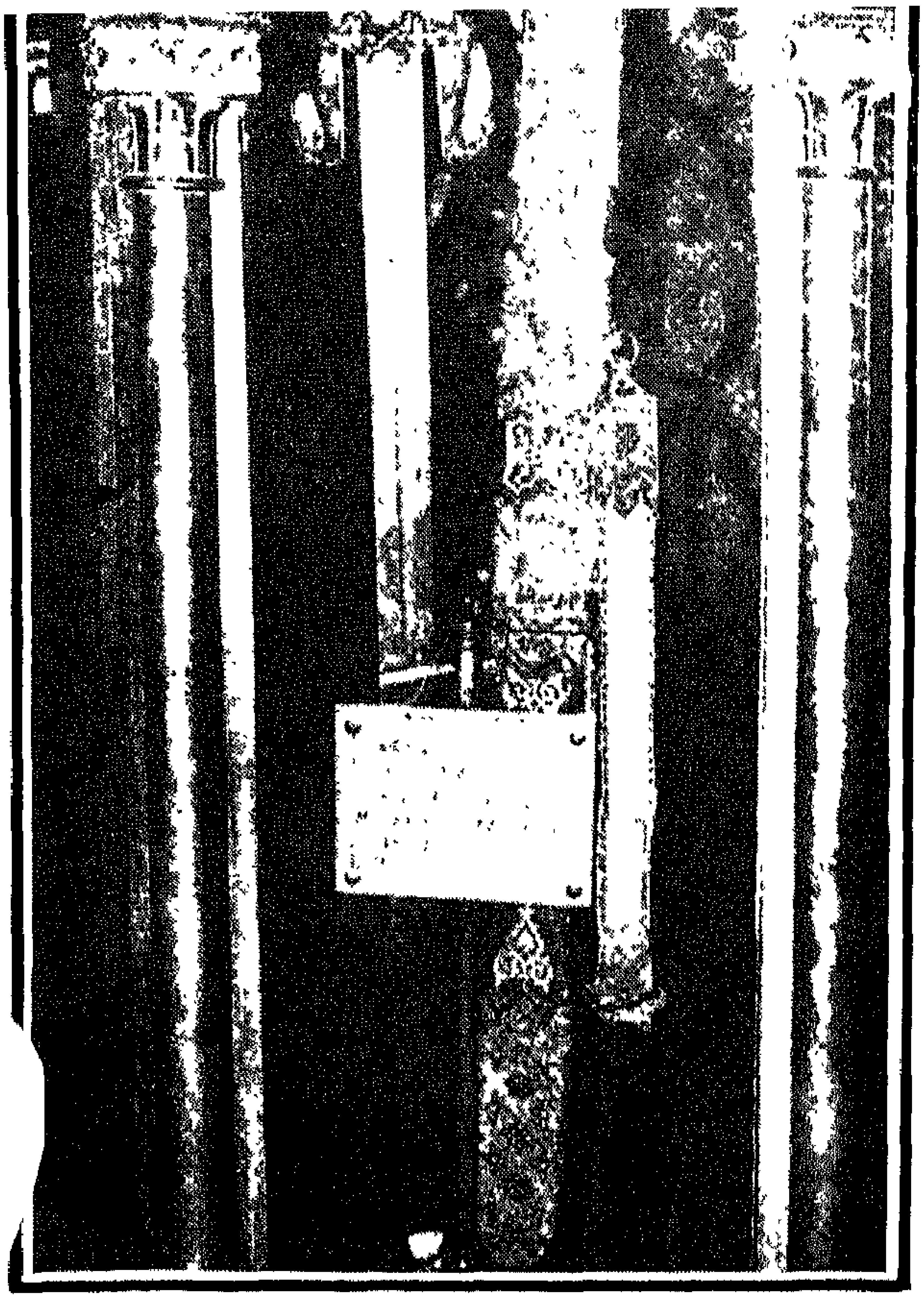

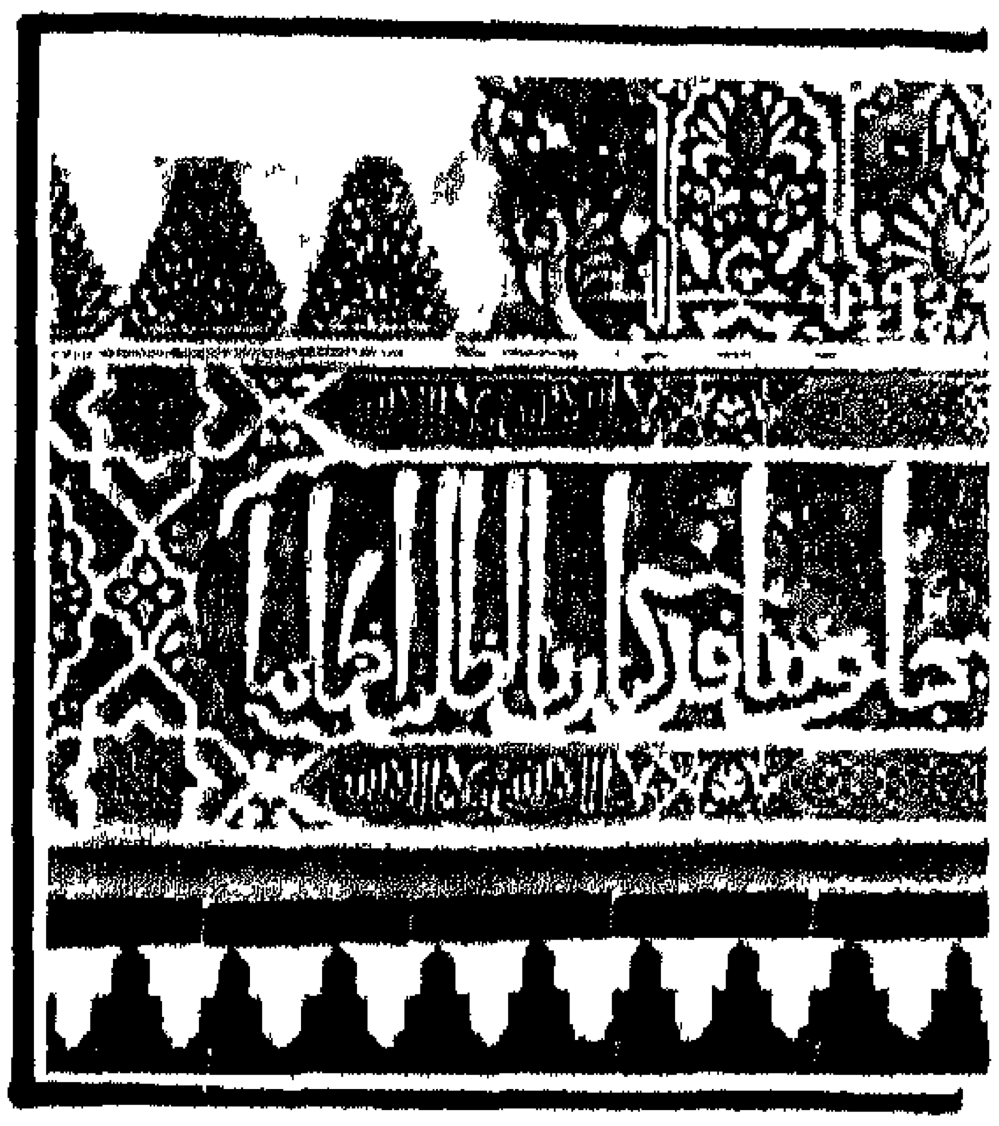

الموريسكيون ..

عرب الاندلس الذين قبضوا على الجمر !

هل يعرف أحدكم من هم «الموريسكيون» ؟! .. طبعا لن يعرف احد منكم حتى طبيعة هذا الاسم هل هو إفرنجي أو برنجي ، والخطأ طبعا ليس على التعليم العربي .. بل ان الحق كالعادة يقع على الطليان ! .

الموريسكيون ، أطال الله أعماركم ، هم بقية العرب الذين فضلوا البقاء في وطنهم الاندلس .. البعض سماهم (المدجنين) ، والحكم الاسباني المسيحي سماهم (الموريسكيون) .. أي (النصارى الجدد) وهؤلاء أيها السادة مهما كانت التسمية التي تطلق عليهم ، ذاقوا ما لم يذقه شعب من ألوان الاضطهاد والقمع الديني والفكري والاجتماعي .. وينطبق عليهم بحق اسم (الشهداء) .. أولئك الذين قبضوا على جمر الأيمان بقبضاتهم .. وصبروا على الاذى متمسكين بايمانهم الذي كان شعله في قلوبهم . حملوه معهم رغم الحرق حتى الموت في الاندلس وامريكا وحتى الفليبين .

الاندلس يا سادتي حكمة لم يعلقها العرب في اذانهم حتى الآن . تصوروا مجموعة من العرب محاصرين من قبل الاسبان في قلعة معزولة . في النهار يقاتلون الاسبان .. وفي الليل تثور العادة القبلية العربية وينشب القتال بينهم . لقد زادوا على سفسطائي روما الذين كانت هزيمة مدينتهم بسبب مناقشة هل البيضة قبل الدجاجة .. أم الدجاجة قبل البيضة ؟! .

بعد سقوط الاندلس ، وفي عام ١٤٩٨ ظهرت نيات السياسة الاسبانية واضحة في نقض عهود المسلمين ، وبدأت مساعي الكنيسة في تنصير المسلمين فأخذت أسر عربية كثيرة في مغادرة الوطن متجهة الى ديار الاسلام .. إلا أن كثيرا من الاسر العربية ظلت في الاندلس .. وهؤلاء من نحكي حكايتهم . تلك الحكاية التي لم تنته حتى بقرار الطرد الشهير عام ١٦٠٩ .

وقصة الموريسكيين العرب في أسبانيا المسيحية التي نقب عنها بصبر الباحث الفرنسي د . لوى كارديك .. ونقلها الى العربية د . عبدالجليل التميمي التونسي .. هي قصة ابناء الاسلام العنيد .. هم اسبان اصليون .. إلا أن واقع محاكم التفتيش حولتهم الى كائنات اخرى .. وما تزال اوراق محاكم التفتيش لحد الآن ترتجف بالحياة والدماء .. دماء العرب الزكية .. بينما كنا ولازلنا ندرس ان الاضطهاد في اسبانيا الكاثوليكية لم يقع الاعلى اليهود فقط ! بينما قصة هؤلاء المجاهدين كانت تعشش عليها خيوط العناكب !

بعد سقوط حكم العرب في الاندلس لم يبق الا المقاومة السلبية والتقية للاحتفاظ بالشخصية العربية والروح والدين . وأى مظهر يكتشف ، كانت العقوبة جاهزة : جيناس دياز مواطن موريسكي يعمل صيادا في مالقه . ضرب مائة جلده من طرف محكمة التفتيش عام ١٥٦٧ حينما قال (ان الرهبان يكسبون المال بسهولة بمكثهم واقفين وبتناولهم شيئا قليلا من الخبز والخمر) . اما جوانا وهي (أمة) بمالقه فقد عوقبت عندما صرخت قائلة (يا محمد) حينما كادت ان تسقط من على السلم . اما ايزابل من طليطلة فقد عوقبت عندما صرخت غاضبة (إن عقيدة العرب افضل من عقيدة المسيحين) ولم تتماسك ايزابل المدريدية عن القول عندما شتمها احد الاسبان بقوله (يا كلبة العرب) ، حيث ردت عليه قائلة (نعم انا عربية ، ذلك ان ابي وامى كانا وماتا عربيين ، وأنا ايضا عربية وسأموت عربية) .

كان العرب في اسبانيا الكاثوليكية يتعرضون لابشع ما يتعرض له انسان وهو محاولة تغيير لروحه ودينه وعنصره بالعقوبات التي تتراوح ما بين السجن طوال الحياة .. والاعدام حرقا . ورغم ذلك كان الصمت مستحيلا حيث كان الأمر لا يمكن السكوت عليه .. وبالذات في حالات الغضب التي تكشف كثيرا من الاشياء التي يحرص على كتمانها .. ومثل هذه الحالات كانت تؤدي بصاحبها حتما الى المثول امام دواوين التحقيق .

مثلا لويزا هارنندار كانت تمسك بابنها في وسط الشارع صارخة (ان العربي افضل من المسيحي) وكان غضبها نتيجة لسوء معاملة اهالي القرية لابنها حيث وصفوه بالعربي .. وفي الحال رميت في السجن وصودرت أملاكها . وكانت زلات لسان الاطفال دافعا الى كشف هوية العرب المسلمين .. من ذلك ان طفلا حديث عهد بالمسيحية (باغت امرأة راكعة على قدميها امام صليب حيث علق قائلا (ماذا تفعل هذه المرأة المسكينة ؟ هل تعتقد ان ذلك سوف يجلب لها شيئا ما ؟!) وطبعا عوقبت اسرة الصبي . ولهذا السبب سعى الموريسكيون الى تأخير تلقين ابناءهم التربية الدينية حتى يتلافوا مواجهة دواوين التفتيش . فنجد ان جروينمو دوروجاسي يقول (انه يحس بغم كبير في قلبه ، عندما يلاحظ ابناءه الصغار يعيشون في الخطأ وسط المسيحيين ، وانه حتى الآن لم يلقنهم شيئا بسبب سنهم المبكرة)

كانت الحياة قاسية على الموريسكيين .. فكل نأمه أو حركة تحسب ضدهم . ولكي يتهربوا من محاكم التفتيش فضل الموريسكيون البقاء في منازلهم بدلا من الذهاب الى الكنيسة ، ورغم ذلك اعتبر عدم الذهاب الى الكنيسة علامة على اتباع الدين الاسلامي ، اما رفض أكل لحم الخنزير فتلك علامة حقيقية على المعتقدات وحجة على اتباع الدين الاسلامي . فمثلا دخلت احدى الموريسكيات على احدى جاراتها وقالت لها عندما كانت هذه الجارة تقلي شحم الخنزير (ان الخنزير يعد حيوانا نجسا) وكانت هذه العبارة دليلا كافيا لاجراء تحقيق معها .

بل كان الأمر احيانا اسوأ من ذلك .. فحتى طريقة الجلوس على الارض بدلا من الكراسي يعتبر دليلا على عروبة الشخص ، فلقد اتهم (جوان دو فلورانس)بطليطه على انه من اتباع محمد بسبب الايمان الذي اظهره ، حيث ان من عادته انه لا يجلس على كرسي ، ولا يتناول طعامه على المائدة . بل إن ظاهرة اخرى مثل أكل الكسكسي فسرت على أنها علامة من اتباع الدين الاسلامي ، واتهم جيرونيما لافرانكا وعائلته على انهم يجلسون متربعين

وواضعين الكسكسي في أناء وسطهم ليأكلوا بأيديهم على شكل كرات حسب عادة العرب ، وهم بهذا يداومون على اتباع حفلات دين محمد .

كان قانون الموريسكيين الذين بقوا في الاندلس الاسبانية هو قانون الصمت . لكن في بعض الاحيان كان صمتهم يخونهم ، وبعد قرار الطرد قرروا عدم الصمت والرد الهجومي ، لذا أعلن فرنسيسكو دوتالوميزا (ان المسيحيين كانوا همجا لأنهم يعبدون قطعا من الخشب) فحكم عليه بالسجن المؤبد . اما لورنز لوباز فقد ثار على الاسبان الكاثوليك عندما اطلقوا عليه لقب عربي وطالبوا بحرقه ، وبينما كان جلادوه يرجمونه بالحجارة ، ورغم الألم الشديد كان يصرخ قائلا (أني فعلا عربي حتى نخاع العظم) وحتى لحظة الطرد الاخيرة احتفظ الموريسكيون بتقاليدهم الدينية محافظة حية ، واستمروا في ممارسة الاسلام بشكل سري ، لدرجة ان فالا نونار كان يشم افواه ابناءه ، ليعرف هل أكلوا لحم الخنزير وشربوا الخمر . وكان الامتناع عن شرب الخمرة علامة على الأسلام ، ولقد اخذت دواوين التفتيش بطليطه جوان هرادو لانه يملك العنب ويصنع منه النبيذ قصد اخفاء نيته السيئة ، إذ هو في الواقع لا يشرب الخمرة !

بل إن الامر اسوأ من ذلك ، فلبس ملابس جديدة يوم الجمعة يعتبر جريمة تقدم بمقتضاها الى المحكمة ، وهذا ما حصل لجوان دوبرقوس حيث قدم للمحكمة لأنه نظم في بيته اجتماعات (يعزفون على الآلات ويرتبون حفلة رقص ويأكلون الكسكسي .. وكانوا يرقصون ويغنون «اغاني عربية ويتكلمون العربية ، وكانوا ينادون على بعضهم البعض بأسمائهم التي اعطيت اليهم عندما كانوا مسلمين .. وكانوا يفتخرون بتلك الأسماء ، اكثر من افتخارهم بتلك التي اعطيت لهم من طرف المسيحيين .. ويستنتج من هذا انهم يقدمون كل ذلك ليحتفظوا بدين محمد) ..

ان لائحة اتهام الفيرا زوجة مانوال دونايرا (انها تزوجت كعربية ، وانها زفت اليه حسب قانون العرب دون ان تتلقى بركة الزفاف الكنيسية ، وقد استمرا على العيش كزوجين عربيين) بل كانت مقاومة الموريسكيين لاسلامهم وعروبتهم تتجسد حتى في دفن موتاهم وولادتهم ورفضهم لكل الطقوس المسيحية ، لحد ان القس ازناكا ردونا قال (ان هؤلاء الكلاب يستهزئون ويسخرون من كل الطقوس المقدسة) وكانت جوانا هارفند والتي اتهمت بتلك التهمة تقول بأنهم (عندما يرجعون من الكنيسة بعد اقامة القداس ، يحسون بشعور الانتماء الى العرب اكثر مما كانوا قبل ان يدخلوا) .

كانت محاكم التفتيش رمزا وتعبيرا عن صرامة الكنيسة والدولة ، والتي كانت تهدف الى طرد كل ما هو مخالف ، لذا تقررت سياسة واحدة تجاه الموريسكين ، ألا وهي سياسة النفى او القتل او الدمج ، حيث تقرر تعميد الموريسكين وتعليمهم التعاليم المسيحية إلا إن الموريسكيين استمروا دائما يعيشون وفقا لدين محمد ، الذين علموه لأبناءهم وقد بقوا يمارسون تعاليم القرآن علانية ، مظهرين احتقارهم لطقوس الدين المسيحي) كما أعلن احد القسسه ذلك متذمرا .

كان الموريسكيون يقاومون بالرفض ، بالعنف ، بالمقاومة السلبية ، وحتى بالتنبؤات كانوا يقاومون .. والهدف هو الامل بانتصار الاسلام ثانية .. تقول نبؤة (الاتراك بمعية جيوشهم سوف يتحولون الى روما ، وسوف لا يتم انقاذ المسيحيين الذين يعتنقون دين محمد ، أما الآخرون فسوف يؤسرون او يقتلون) وكانت نبؤة ثانية تقول (ان المسلمين سوف يرجعون ثانية الى اسبانيا ، وانهم سوف يدخلونها من أربع جهات) ، واكدت نبؤة ثالثة (إنه في مضيق جبل طارق يظهر جسر من جديد ، وعن طريقه سوف يجتاز العرب ، ويتمكنون من غزو اسبانيا حتى فاليسيا)

لم تهدأ محاكم التفتيش عن ملاحقة كل ما هو عربي . احرقت الكتب العربية بعد سقوط غرناطة . كانت تطارد الكتب والمخطوطات . وكانت هناك اوامر بتسليم مثل هذه الكتب ، والذي يمتنع عن جلبها في الزمن المحدود تطبق عليه العقوبة ، فمثلا جلد أحد العرب ٢٠٠ جلدة ، واجبر على قضاء خمس سنوات يعمل عبدا على ظهر سفينة .

كانت العائلات العربية تحتفظ لديها بنصوص دينية كانت تقتنيها وتجمعها في سفر واحد ، يكون مرجعا للتعليم الديني للعائلة ، وكان السفر يزيد حجما من جيل الى جيل ، وقد استولت محاكم التفتيش لدى رودريقو الروبيو على مخطوطة محرره بعض فقراتها في القرن الخامس عشر وبعضها في القرن السادس عشر ، وتم مصادرة حتى القلم الذي كان ما يزال مبللا بالحبر ، مع عبارة كتبت تقول : بالعربية وبحبر يشم منه وحى الشعر) .

وبعد عملية الطرد الاخيرة عثر في البيوت المتروكة على مخطوطات باللغة القشتالية عن كتاب الاوامر والحفلات الدينية العربية ، وعثر على اوراق مخفية ، كما عثر على مكتبة كاملة مخبأة في جدار منزل . وكما قال احد الاسبان (ان كتب دينهم وقواعدهم ومعتقداتهم متوفرة جدا مثل حبات رمال البحر ، ففي كل ركن منه تعثر على مثل هذه المجموعات ، وكانت ياللخسارة كل هذه الكتب التي عثر عليها كانت تحرق من قبل محاكم التفتيش .

وفي ظل هذه الاجراءات المتلاحقة لمحو كل ما هو عـربي ابتدأت اللغـة العربية تندثر ، وكانت التعاليم الدينية والكتب تكتب بالخميادو (اي تكون مكتوبة بالأحرف العربية ولكن في اللغة القشتلية ، وان عددا كبير منها كان مترجم عن العربية) كان هذا الأمر يقلق المسلمين لدرجة ان جوان دي لويزا قد طلب من احد المتنبئين ان يسأل الملائكة (هل بامكان المؤمنين ان يصلوا بالعربية او القشتالية ؟!) وقد رد عليه المتنبىء (أن يصلوا بالقشتالية) واذا صلوا بالعربية ، التي لا يفهمونها فسوف لن يكون لصلاتهم اي حس بالورع والتقوى .

وكانت التعاليم الاسلامية في ظل فهم محاكم التفتيش تلقن بسرية تامة . وكان مايثوبارني الذي يعرف قراءة اللغة العربية ، ويملك القرآن بالعربية الذي كان يقرأه ويترجمه سرا الى اصدقائه (وحتى يتظاهر بـالاتفاق مـع المسيحيين ، فإنه لا يبدي شيئـا يدل عـلى إنه عـربي) حيث لا كهنوت في الاسلام ، فكان كل موريسكى متهم بنشر الاسلام . وكانت النساء داعيات متحمسات للعقيدة ، فمثلا آنا دولمان زوجة احد الحمالين قد دعت للاسلام اشخاصا آخرين باعتبارها داعية لدين محمد ، وقد لقنت اشخاصا كيف يقومون بالصلاة والوضوء ، ونظرا لعدم معرفتها القراءة والكتابة ، فانها اكتفت بتعليم القواعد الدينية ، وكان اكتشاف أمرهـا يعني الحكم عليها بالموت .. حرقا !

كان العرب المسلمون وتحت كل الظروف الصعبة يقومون بالتبشير للدين الاسلامي ، فحينما كـان جيرونيمـو وروجاس مـوجودا في سجن محـاكم دواوين تفتيش طليطه فإنه بدا في محاوره مساجين مسيحيين آخرين (حيث حاول أن يعلمهم (عادات وحفلات دين محمد) وكان يشرح لهم ويعلمهم حتى وهو داخل السجن لأجل (انقاذ روحهم) .

كان الموريسكى العربي المسلم يعاني احساسا عميقا بالغربة ، يحس انه ينتمي الى مجتمع مختلف عن المجتمع الذي يراد أن يدمـج فيه بـالقوة . مجتمع يحاسب الانسان فيه حتى على روحه وتفكيـره . لقد اجبـر العرب الموريسكيين ان يحملوا على قبعاتهم (نصف هلال من قماش ازرق وبحجم البرتقالة) وكانت هناك ممنوعات من يراها او يسمعهـا يجب عليه أن يبلغ محاكم التفتيش . اذا سمع ان الدين المحمدي هو الأحسن وانه لا يوجد دين غيره للوصول للجنة / اذا شوهـد بعض المسيحيين الذين يـأكلون اللحـ

وقولهم انه حلال ويلبسون ملابس جديدة يوم الجمعة / اذا ذبحوا حيواناتهم بالسكين قائلين باسم الله / اذا ختنوا اطفالهم ولقبوهم باسماء عربية / اذا صاموا رمضان وسلموا بعض الصدقات / اذا تزوجوا على الدين المحمدي / اذا غنوا الاغاني العربية ونظموا حفلات أورقصات / اذا احترموا تعاليم الاسلام الخمسة / اذا غسلوا موتاهم وكفنوهم في قماش ابيض / اذا تذكروا محمدا عند الحاجة ... الخ

لذا كان هاجس الرحيل قويا . وانتشرت اغنية عربية تقول (انهم يهددونا بالطرد / لنذهب كلنا الى هناك / أين توجد جماعات العرب / وأين توجد كل الخيرات هناك) لذا كان التمزق يأكل الموريسكى . كان طوال حياته يمارس دينا ليس دينه ، كان لوى ديسوا يحس بقرب ساعته ، لقد بقى في أعماقه يحتفظ بايمان دين اجداده ، بينما يتظاهر بدين آخر ، لذا نجده يتساءل . ما هو الدين الحقيقي الذي وجب عليه ان يلتجىء اليه ، دين المسيحيين أو العرب ، وعلى أيهما سيموت ؟!) وعليه فقد جلب اليه قرب سريره ابنه وعائلته واصدقاءه ، وحثهم على (أن يموتوا كما كان يعيش على دين محمد ، وان هذا هو الطريق السوى للذهاب الى السماء) وقد جلب اليه اهله عربيا مثقفا جدا في الدين ليساعده على الاحتضار .

وفي ظل محاكم التفتيش في القرن السادس عشر التي ترفض كل حوار وتسامح تجاه العقائد الاخرى والتي كان سلاحها الطرد والنفي والحرق والمصادرة والسجن . لذا لم يظل امام الموريسكيين كاجراء وقائي لاخفاء معتقداتهم إلا (التقية) ، حيث يمتنع المسلم الذي يعيش وسط بيئة اجتماعية معادية عن ممارسة دينه ، متظاهرا باعتناق الدين الذي فرض عليه ، وكان السؤال الذي يؤرق كل مسلم اسباني هو (ما العمل للمحافظة على الاسلام وسط المسيحيين ؟!) وقد افتى مفتى وهران في ديسمبر ١٥٠٤ بالتالي .. انه في حالة قيام المسيحيين باجبار المسلمين على سب الرسول فإنه وجب عليهم تسميه الرسول بشخص آخر .. وان يكون بربط ذلك السب بشرور الشيطان) . أما بالنسبة للصلاة (فباستطاعة المسلم تأديتها في الليل ، واذا اجبر المسلم على شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير ، فبامكانه القيام بذلك ، ولكن بشرط ان يعتبر ذلك فعلا فاحشا ويدخر لنفسه حسن النية) .

كان على الموريسكيين ان يعيشوا حياتين . حياة في ضمائرهم ترفض وتنكر ، وحياة تساير المجتمع المسيحي ، وبفضل هذا الضمير اليقظ ، كانوا

يستمرون في ممارسة شعائرهم ، وكتب احد الموريسكيين الهاربين الى تونس (لقد اضطهدوا امتنا الاندلسية بالسجون وبالتعذيب والقتل ، ومع كل هذا فإن اتباعنا قد حافظوا بشدة على عقيدتهم الصادقة ، وتظاهروا باتباع عقيدة اخرى ، في حين ان قلوبهم تؤمن بشيء آخر) . لذا اضافت محاكم التفتيش تهمة جديدة للموريسكيين الا وهي (اخفاء المعتقدات بفن وخبث) ، وفي لحظات الطرد الاخيرة بعد أن فشلت جميع الوسائل لتغيير المعتقدات في القلوب ، اعترف الموريسكيون بصورة تلقائية بأنهم جميعا مسلمون .. وعرب .. شأنهم شأن عرب الجزائر .. وكانوا مستعدين رغم عقوبة الموت حرقا ، للدفاع عن عقيدتهم ، وخلال مئة سنة من سقوط الاندلس ورغم عقوبة الموت حرقا لأنهم عرب لم يتخلوا عن ديانتهم .. ورغم كل الوسائل فشلت الكنيسة في الانتصار على الاسلام في قلوبهم .

ولم يتم التخلص من مخالب محاكم التفتيش الا بفضل تدخل السلطان العثماني الذي انزعج من المعاملة التي تمارسها تلك المحاكم ، وعليه قرر السلطان ان يقدم المساعدة الى موريسكى اسبانيا ، ومن اجل ذلك اقام في الساحة الرئيسية لأسطنبول (منصة كبيرة كما فعلوا في طليطة وغيرها حيث توجد محكمة دواوين التفتيش للاحتفال بالأعدام حرقا ، وبحضور كل وزرائه ، استجلب السلطان كل الأسرى المسيحيين ، وحمل كل واحد منهم حزمة من خشب ، وقد كان مستعدا لاحراقهم (اذا لم يعد ملك اسبانيا بارجاع كل العرب الموجودين في أراضيه) وقد كتب الاسرى الى البابا شارحين لهم الوضعية ، وعليه فقد أمر البابا حالا ملك اسبانيا بطرد الموريسكين من اسبانيا نهائيا ، وهذا ما تم فعلا .

لكن هل انتهت مأساة العرب بالطرد ؟!

للآسف كلا ، فاسبانيا في القرن السادس عشر والسابع عشر كانت مسعورة ضد كل ما هو عربي واسلامي . كانت اسبانيا ترى في الموريسكيين خطرا مضاعفا على الوحدة الاسبانية ، وظل الموريسكيون يعتبرون دائما الخطر الأكبر على اسبانيا ، وان (الدين والحروب وامريكا لم تقلل من عددهم ! اذ كلهم يتزوج ، وكلهم ينجب ، وبالتالي ومنطقيا فإن عددهم في ارتفاع مستمر) .

ظلت اسبانيا تلاحق كل ما هو عربي في مستعمراتها الخارجية ، في امريكا وشرق آسيا والهند ، وتقرر مع (العرب واليهود والأشخاص الذين تم

اصلاحهم عن طريق ديوان التحقيق) من اجتياز الممالك التي فتحت ، وامتد المنع حتى الى احفاد العرب ، وكان الهدف من كل ذلك الخوف من ان يتسرب الأسلام الى عقيدة هنود امريكا الذين اعتنقوا الديانة المسيحية حديثا .

كانت الهجرة الى امريكا تتطلب الحصول على اذن مستعجل من الملك ، اما الذين يتم اكتشافهم بأنهم من ذوي أصول عربية فتصادر املاكهم وينفون ثانية الى اسبانيا ، لأنه (لبقاء الهنود على اعتناقهم السليم للدين المسيحي ، وجب ابعاد الموريسكيين عنهم ، وعدم الاتصال بهم مطلقا) حسب بيان الملك ، وبالذات بعد ان علم بأن مرور العبيد الى امريكا يعد من الأسباب التي عاقت انتشار الدين المسيحي بأمريكا) وتقرر كذلك طرد العرب البربر ، وكل شخص اعتنق الدين المسيحي من العرب وابنائهم ، وجب طردهم فورا على اول باخرة تقلع مباشرة .

وفي عام ١٥٦٩ انشأت السلطات الاسبانية محكمة تفتيش خاصة بأمريكا مهمتها مطاردة الموريسكيين ، وفي عام ١٥٦٠ في البيرو حوكم احد العبيد لأتهامه بأنه مسلم ، واحرق هورناشور دوكستيلا لأنه مسلم ، وكذلك كوادلافيرا الذي حكم عليه بالسجن مدى الحياة لأنه مسلم . وكانت محاكم التفتيش تلاحق اي اثر اسلامي لدى الفرد المسيحي ، فلقد عوقب رجل دين مسيحي قال (انه وجب علينا ان لا نعجب بالتماثيل) وعوقب راهب قال في موعظته (ان كل الأشخاص يستطيعون ان ينقذوا انفسهم بالتجائهم الى عقيدتهم .. العربي لدينه ، واليهودي لدينه) .

أما في المكسيك فقد كان المسلمون يكتشفون لامتناعهم عن شرب الخمر وأكل الخنزير وحينما يقيمون الصلاة او يصومون رمضان .. او حتى من خلال زلة لسان حينما ضبط بدور سوريانو يقول لماذا ادافع عن الدين المسيحي في حين انني لم ادافع عن دين العرب .

ولم تكف محاكم التفتيش عن ملاحقة العرب والمسلمين حتى الى جزر الفلبين ، حينما اوفدت احد رؤساء ديوان التحقيق الى مانيلا ، لأن عددا كبيرا من العرب المسلمين وصلوا من ماليزيا وبورينو واستقروا هناك ، كما ان عددا آخر من الجنود ، خاصة الاندلسيين (ولقد ذكرت اسماؤهم) حيث اخذ عليهم بأنهم يرغبون في الاجتماع بالعرب وعلى الأخص اثناء الاعياد ، ونظرا لكثرة هذه الحالات ارسل ديوان التحقيق بمكسيكو الى رئيس شرطة مانيلا لردع خيانة الاسبان الذين يعاشرون العرب (ويذهبون حتى الى

الزواج بـالموريسكيـات حسب العادات العـربية ، ويتـزينون بلبـاسهم ، ويمارسون كل تقاليدهم في الشرب والأكل والقواعد والاحتفالات) .

ان اسبانيا الكاثوليكية كانت تنظر الى ان الدين الاسلامي هو احد ثلاثة وجوه للوحش ، والوحش هو (قوانين موسى القديمة ، ودين محمد ، وفريدي مارتن لوثر) .. وكان هاجسها الاكبر الذي سير الغرب الكاثوليك في الحرب الصليبية ضد العرب والمسلمين .. هو العروبة والأسلام .

سبع خطوات
سبعمائة الف دينار

كتاب «الوزراء» نموذج نادر، حلقة هامة من التاريخ، اسرار نادرة، وحقائق تدعو الى العظة والاعتبار. الحقائق. وزير يسرق في عشر خطوات سبعمائة الف دينار والجزاء تقديم رأس إبنه على طبق.. مؤامرات ودسائس ومناصب. حكايات اشبه بالقصص الفنية الرائعة. بل كما قيل : الحقيقة احيانا اغرب من الخيال. انه تاريخ (الوزراء) في اواخر اندثار الدولة العباسية. وحتى تأليف الكتاب له قصة غريبة .

كان فخر الملك قد أودع أقواما مالا، ولحن بـأسمائهم ـ أي جعـل لها رموزا ـ وكنى عن القابهم، فكان فيها : عند (الكوسج اللحياني) عشرون الف دينار. وعند (بسرة بقمعها) ثلاثون الف دينار. وعمل كل ذلك خوفا من النكبات ومصادرة الأموال .

فلم يعرف الحسن بن الحسين الرخجي (الذي كان وزيرا لشرف الدولة) من صاحبي هذين الأسمين، لكي يصادر الاموال، فدخل عليه رجـل كان يتطايب لفخر الملك ويأنس به، وكان يلقبه بالكوسج اللحياني، لكثافة الشعر في احد عارضيه وخفته في الاخر، فدخل على الرخجي متظلما من جار له، متقربا اليه بخدمة فخر الملك فقال : يا مـولانا، ان فخـر الملك كان يـطلعني على اسراره، ويلقبني بالكوسج اللحياني، فقال الرخجي لاصحـابه فـورا : لا تفارقوه الا بعشرين الف دينار، وتهدده بالعقوبة، فحملها بختومها اليه !

ثم تفكر الرخجي في قول فخر الملك : عند بسرة بقمعها. فقال لنفسه : هو الصابىء فأحضر هلال بن المحسن (مؤلف كتاب الوزراء) وخاطبـه سراء وكان هلال أحد كتاب فخر الملك، فلم ينكر. فقال له الرخجي : قم ايها الرئيس امنا ولا تظهر هذا الحديث لأحد، وانفق المال على نفسك وولدك وقيل لمؤلفنا ان يعتزل، والافضل له، ان يشتغل بتاريـخ اخبار النـاس. فاشتغـل ابن الصابىء من ذلك الوقت بتاريخـه الذي سمى بكتاب (الوزراء) او تحفـه الامراء وتاريخ الوزراء لأبي الحسن الهلال بن المحسن الصابىء .

المهم، ما علينا من المحققين، ولندخل الى عالم الوزراء في اواخر العصر العباسي. والوزير اطال الله اعماركم هو المتحدث للملك في امر مملكته وهو المشتق من الوزر بفتح الواو والزاى، وهو الملجأ، ومنه قوله تعالى (كلا لا وزر) سمى بذلك لأن الرعية يلجئون اليه في حوائجهم. وروى الثعالبي حديثا هو : اذا اراد الله بعبد خيرا او قال : بالأمير خيرا ـ جعل له وزير صدق ان ذكر اعانه، وان نس ذكره، واذا اراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، ان نسى لم يذكره وان ذكر لم يعنه .

ويبدو ان الاقدمين لم يبتعدوا عن الصواب في قولهم بأن الداخل في الحكم كما الراكب على الأسد، لا يدري متى يفترسه، وقصة ابوالحسن بن الفرات وابنه المحسن بن على خير دليل على هذا المثل، حيث يرتفع الناس الى اعلى أعلين ويهبط بهم الى الحضيض في طرفة عين.. حيث تكتب قصصهم فيما بعد بمداد من الذهب على آفاق البصر.. لكي يعتبر الغير.. الا ان الناس وكالعادة لا يتعظون !!

لنقرأ بعض سريالية الواقع :

يحضر علي بن الفرات وهو محبوس مع اخيه على اساس مصادرة بمبلغ مائة وعشرين الف دينار عليه، فجيء به من محبسه يرسف في قيوده، وعليه جبة دنسة وشعره طويل، فسأل عن امر الاعمال والعمال، فانبسط ابوالحسن انبساط لرجل جالس في الصدر. فتحدث حتى اتى على امور الدنيا. فقال له وزير المعتضد : اعتزل واعمل لنا عملا يشتمل على جميع ما ذكرته. ثم فكت قيوده .

ولما تولى ابوالقاسم عبيدالله ابن سليمان وزارة المعتضد بالله، والدنيا منقلعة بالخوارج، والاطماع مستحكمة من جميع الجوانب، والمواد قاصرة، والأموال معدومة، والخراج قد صرف لمدة سنتين مقدما، وليس في الخزائن مال ولا ذهب، والنفقات سبعة الاف دينار يوميا، قال ابو القاسم : يا أبا الفضل قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة، وبيوت مال فارغة، وابتداء عقد لخليفة جديد الأمر، وبيننا وبين الافتتاح مدة، ولابد لي في كل يوم من سبعة الاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاقتصار والتجزئة (....) فقلت وانا احب تخليص بنى الفرات : ان اردت ان اجعل لك ذلك وزيادة فأطلق ابن الفرات واستعملهما، فتمم اطلاق سراحهما.. وكانت الوزارة الأولى لأبي الحسن بن الفرات بعد فتنة عبدالله بن المعتز، حيث ارسل المقتدر بالله اليه، وكان مختفيا عند بعض التجار من جيران داره، وأقطعه الخليفة الدور والاراضي والضياع، واجرى له خمسة الاف دينار في كل شهر، ولأولاده الثلاثة، الف وخمسمائة دينار، فتولى امر الذين كانوا مشاركين في فتنة المعتز، بمصادرة اموالهم وتخريج الأموال المخبأة حتى انه استطاع ان يستخلص من ابوعمر القاضي ٩٠ الف دينار حتى يتخلى عنه المقتدر !

وعندما أمر بقبض ما في دور القوم الذين بايعوا ابن المعتز، حمل اليه صندوقان فسأل : هل علم ما فيهما ؟ قالوا : نعم . فقال : (لا يفتحان .

ثم دعا بنار. فأحضرها الفراشون، فأججت وتقدم بطرح الصندوقين في النار. على ما هما عليه، فلما احرقت أقبل على من كان حاضرا وقال : والله لو فتحتهما وقرأت ما فيهما لفسدت نيات الناس كلهم علينا واستشعر الخوف منا، ومع فعلنا ما فعلناه طوينا الأمور بهذا، فهدأت القلوب واطمأنت النفوس .

كانت شخصية ابى الحسن بن الفرات شخصية غريبة، والقصص عنه كثيرة. قال ابومحمد الصلحى، قال لنا ابوعلى بن مقلة وقد جرى ذكر ابن الفرات : يا قوم، سمعتم بمن سرق في عشر خطوات سبعمائة الف دينار ؟ قلنا : كيف ذلك ؟ قلت : كنت بين ايادي ابن الفرات في وزارته الأولى، ونحن في دار الخلافة فنقرر ارزاق الجيش، ونقيم وجوه مال البيعة ونرتب اطلاقه، وذلك عقيب فتنة ابن المعتز، فلما فرغ مما اراده، وخرج فركب طياره وبلغ نهر المعلى، فقال : انا لله، إنا لله. قفوا. فوقف الملاحون. ثم قال لي وقع الى ابى خراسان صاحب بيت المال بحمل سبعمائة الف دينار تضاف الى مال البيعة وتفرق على الرجال. فقلت في نفسي. أليس قد وجهنا وجوه المال كله ؟ ما هذه الزيادة ؟ ووقعت بمارسمه وعلم فيه بخطه ودفعه الى غلام وقال : لا تبرح من بيت المال، حتى تحمل هذا المال الساعة الى داري. ثم سار. قال فحمل اليه المال بأسره وسلم الى خازنه . فعلمت انه نسى ان يأخذ شيئا لنفسه في الوسط، فاستدرك من رأيه ما استدرك .

ولم يكن ابى الحسن بن الفرات الا ابن عصره. يقول أبوالحسن على بن احمد : كنت بحضرة ابى الحسن بن الفرات في وزارته الأولى وهو جالس يعمل، اذ رفع رأسه وترك العمل من يده وقال : اريد رجلا لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، يطيعني حق الطاعة فأنفذه في امر مهم لي (...) وكان ينوي ان يرسله لمصادرة احد الاعداء من ماله، فذهب هذا الشخص الى الرجل المعنى، ثم امر بتمديده وايقاع المكروه به فأوقع، وهو في ذلك كله يقول : يكفي الله، ثم امر بنصب دقل فنصب، وجعل في رأسه بكرة فيها حبل وشدت فيها يدا الرجل المصادر، ورفع الى اعلى الدقل وهو يستغيث، فمازال معلقا ومبعوث ابن الفرات يقول له : المال.. المال .. فلما ضجر ابن الفرات قال لمن يمسك الحبال ارسلوا ابن الفاعلة ـ وعنده انهم يتوقفون ولا يفعلون ـ الا انهم أرسلوه لما رأوا عليه من الحدة والغضب، فسقط الرجل على الارض، وكان بدينا سمينا فوقع على عنقه فدقها .

أمضى ابى الحسن بن الفرات في وزارته ثلاث سنين وثمانية اشهر واربعة عشر يوما، اختلفت عليه الامور فيها، وحضر عيد النحر (سنة ٢٩٩هـ) فاحتيج فيه من النفقات الى ماجرت العادة، وكانت المواد قد قصرت والمؤن قد تضاعفت، وطلب من المقتدر بالله ان يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه

في نفقات هذا العيد فمنعه ذلك، والزمه القيام به من جهته، فأقام على ان لا وجه له الا مما يعان به، ووجد بذلك اعداؤه الطريق الى الوقيعة به .

وهكذا دار الزمن دورته الأولى، فيما كان أبوالحسن وكتابه يتجهون الى دار الخلافة مطمئنا فتم القبض عليه، وتسارع الجند والعوام الى دور أولاده وأهله، فنهبوها واخرجوها واخذوا حتى خشبها وسقفها، وعين بدلا عنه (ابوعلى محمد بن عبدالله بن خاقان)، حيث صادر ضياعه واقطاعه واملاكه وعقاره وامواله وغلاته، فكان (الف الف دينار عينا وستمائة الف دينار) غير الاثاث والحيوان.. ولم يؤخذ من احد الوزراء مثل هذا المقدار لا قبله ولا بعده .

الا ان الوزير ابوالحسن الفرات ذا لحم يابس ليس من السهولة ان يؤكل، فظلت مؤامراته تحاط وهو داخل السجن، تكيد للوزير الجديد عن تأخيره في ارزاق الجند، حتى كتب احد رجال البلاط للخليفة قائلا : متى صرف على بن عيسى ورد ابن الفرات حمل الى المقتدر بالله في كل يوم الف دينار والى السيدة والامراء خمسمائة دينار، وعرضت هذه الرسالة على ابن الحسن في سجنه، فالتزم للمقتدر بالله الوفاء بهذه المبلغ، فأطلق سراحه والقى القبض على الوزير على بن عيسى.. ألم نقل انها دنيا دوارة فردت على ابن الفرات امواله وضياعه واملاكه بعد ان قضى في السجن خمس سنين واربعة ايام .

يقول ابوالحسن بن الفرات : العامل في أول سنة اعمى وفي الثانية اعور وفي الثالثة بصير.

كما يقول ايضا السيف تابع والقلم متبوع، وقل سيف غلب القلم، الا كان داعية للخراب .

ورغم شطارة وذكاء ودهاء صاحبنا ابوالحسن بن الفرات الا ان المؤامرات المضادة له لم تتوقف، وتم مراسلة السيدة ام المقتدر والحجاب وكل من لديه مخاوف من الوزير وانتشرت الاشاعات والاقاويل وكثرت الوقيعة به، بأنه قلد ولده الدواوين وأقاربه الأعمال، وقبض اموال المصالحين والمصادرين وعدل بها عن بيت المال، كما ان المقتدر بالله طلب من ابن الفرات مالا لبعض مهمة بمنحه منه واعتل عليه فيه. فزادت الاشاعات وانتشرت حتى انه اذا ركب الى دار السلطان تفرق الكتاب عنه واستتروا، واذا عاد ظهروا وحضروا، وفي الاخير اكتملت المؤامرة وتم القبض عليه وعلى ابنه وأهله وكتابه في داره !

ظل وزيرنا في السجن سنة وخمسة أشهر وتسعةعشر يوما ثم اخرج من حبسه عند زيدان القهرمانه، وخلع عليه وعلى المحسن ابنه، وركبا الى داريهما وجلسا للتهنئة، فظهر اولادهما وكتابهما وحواشيهما .

أما اول ما قام به ابن الفرات بعد عودته الى منصب الوزارة فاستلام الوزير السابق وطالبه بالأموال والاستقصاء عليها، واما ابنه المحسن فلقد تولى الاعداء ونكبهم وقتلهم وابعدهم وصادر اموالهم، ومن اعمال ابنه المحسن انه (صفع ابن الحوارى صفعا عظيما في دفعات، وضربه بالمقارع، ثم طرحه في الماء منكسا وشد رجليه) في السفينة وهى سائرة ثم اخرجه (وقد بقى فيه ادنى رمق، فخنقه غلمانا سودان كانوا معه ودفنوه) اما بن حماد الموصلي فقد احضره المحسن بين يديه (وصفعه على رأسه الى ان خرج الدم من فيه ومات في ليلته) اما على البازينى فصادره على احدى عشر الف دينار (وبلح يديه) اما من الضرب، أحمد بن بسطام فقد قرره على (ثلاثمائة الف دينار) اما ابوزنبور فقد قرره على الفى الف واربعمائة الف دينار، ولم يبق احد من اعدائهما لم يسلم من الموت أو الضرب او المصادرة او الغرامة .

ولكن الصراع لم يتوقف. صراع مناصب، حظوة، مال. وتضيف الحكايات الى القصة حكاية . دخل رجل وجلس بقرب ابى الحسن بن الفرات وساره بكلام لم نسمعه . يقول الراوي. وفجأة نفض ابوالحسن يده وأبعده وقال له جاهرا بالقول : أتقول لي لا يوحش شيء بلغك عن أمرأة ؟! والله لو علمت انني اذا ذكرت لملك الروم وبين يديه بطارقته وملك الترك وحواليه عدده لم ترتعد فرائصى، ولكل قعدت هذا المقعد . اتخوفني من كلام امرأة ؟! وعنى بذلك السيدة ام المقتدر بالله، فلما خرجنا من حضرته . قال الراوي : قلت هذا اخر عهد الوزير بالحياة !

وكان الحكم تديره السيدة ام المقتدر من قصرها والحاجب نصر القشورى ومؤنس القائد. وانتهز الخصوم وجود رجلا اعجميا واقفا على سطح مجلس الخليفة معه محبرة ومقلمة واقلام وسكين وورق، فضرب ضربا شديدا حتى مات ثم صلب على جسر من جسور بغداد وتحدث الناس بأن ابن الفرات دسه ليوهم المقتدر بالله ان نصرا الحاجب اراد الاحتيال عليه به .

وعندما هاجم ابوطاهر الجنابى حجاج العراق ومات الكثير من العطش انقلبت بغداد على جانبها، وخرجت النساء الى الطرقات مسودات الوجه، منشرات الشعور يصرخن ويلطمن وانصرف اليهن حرم من نكبة وقتله ابن

الفـرات، فضعفت نفس ابن الفرات، وهـاجمه العـامة، ورجمـوا سفينته بالحجارة ورجموا ابنه المحسن ودعوا عليهما الناس في الطرقات.. فكان ابن الفرات لا ينام الليل !

وفي يـوم لم يكن بعيدا، اتى حـراس الخليفة فهجمـوا على دار حـرمه واخرجوه حاسرا وقبض على ابنيه وكتابه، فأخذ يتذلل للقائد مؤنس، فقال له مؤنس امام الحضور : الآن تخاطبني بالأستاذية، وبالأمس تخـرجني الى الرقة على النفى، والمطر ينزل على رأسي، وتقول لأمير المؤمنين انني أسعى في فساد مملكته ؟!

ثم سلم ابوالحسن الى من اعتقله، واخذت منه ودائع اقر بها بمبلغ مائة وخمسين الف دينار وضيق عليـه معتقله واقتصر أكله على الخبـز الرديء والقثاء وماء الهواء !

وقع الداهية وانقلبت الادوار. وكان الاعداء قد نجحوا في الايقـاع به، لاستنزاف كل قطعة نقد منه، وحتى استخلاص حياته نفسها، الا ان الثعلب المكار لن يقر ويعترف، الا اذا اعطاه الخليفة الأمان بخط يده، واشهد له الوزير والقضـاة ويسلم الأمان الى شخص موثوق له، فاذا حصل قال الداهية (قررت امرى واعطيت مالي، فأما ان اكون على ما أنا عليه ويراد مني المال، فذلك ما لا أفعله) وفي النهاية قر الوزير بعد لف ومراوغة (بألفي الف دينار يعجل منها الربع على ان يحتسب له من الربع ما صح من ودائعه باقراره وغير اقراره منذ وقت القبض عليه) .

وأتت الطامة على رأس صاحبنا حينما القى القبض على ابنـه المحسن الذي كان يتنكر بثياب النساء، اذ تم اكتشافه بالصدفة، حيث كشفته زوجة وكيل احد اعدائه، اذ كان المحسن قد طلبه (فحضر ودخل ديوانه ورأى ما يعامل به الناس من المكارة فمات فزعا من غير ان يكلمه المحسن او يوقع به مكروها). فذهبت الزوجة وابلغت عنه فقبض عليه وقد قص لحيته وخضب يديه ورجليه، وقد لبس قميصا معصفرا فأخذ حالا بخط اعترافه بثلاثة الاف الف دينار، يؤدي الربع منها معجلا، وناله مكروه عظيم فلم يذعن بدرهم واحد وقال :

لا اجمع بين ذهاب نفسي وما لي، فطولب بسبعمائة الف دينار فـرفض، فطولب بمائة الف، وطلب منه ان يكتب بأنه سوف يؤديهـا في سبعة أيـام وأرجعت الورقة التي كتبها على نفسه، فلما حصل عليها مزقها وأكلها فضرب

على رأسه وجسمه بالفؤوس على ان يكتب غيرها فلم يكتب، فقيد حينئذ وغل، والبس جبة صوف وجبة شعر واعيد الى محبسه وعذب بكل شيء فلم يعط درهما واحدا .

وكانت محاكمة ابى الفرات من جهة اخرى لم تتوقف فطالما ذاق الاعداء منه ما ذاقوا، والآن قد حانت ساعة الانتقام بمقدار ما اذاهم، وهي حلبة يدافع كل من فيها عن نفسه ولنفسه، والمحاكمة طريفة طرفة كيف يبرر صاحب السلطة عن نفسه عندما يسقط. ولولا التطويل لأتينا بها كلها .

كان أبوالحسن وابنه قويان في مواجهة اعدائهما حتى امر الخليفة الذي غضب من اتهام ابى الحسن له بأنه هو الذي امر بطرد القائد مؤنس فأمر بضرب الأب والابن وايقاع المكروه بهما (فهؤلاء قوم قد استقتلوا وما ينقادون ولا يذعنون) فأوقع بالمحسن وضرب حتى تدود بدنه ولم يبقى فيه فضل لضرب. كما ضرب ابيه ابن الفرات فلم يعط شيئا. انهما اعداء ذوي عظام صلبة .

واستبطأ المقتدر بالله تأخر أبا القاسم الخاقاني المسئول عن تقريرهما عن الأموال، وقال له : اين اموال ابا الفرات وابنه التي ضمنتها لي ؟! فقال : لم أترك تدبير امرهما، ولما رأيا أنه قد سلما الى اصحاب السيوف، وعدل بهما عن الكتاب، خافا القتل، فأمر الخليفة بنقلهما الى دار الخلافة.

فخاف الكتاب بأنه متى ما نقل الفرات وابنه الى دار الخليفة سيوقع بهما، حيث سيعرض على الخليفة ان يوفر له المال متى ما اطلق سراحهما، وستدور الدائرة عليهم، فثار الكتاب والقادة وطالبوا المقتدر بالله بقتل ابن الفرات وعارضهم الخاقاني الذي فهم اللعبة وقال (ان قتله خطأ لأنه متى سهل القتل على الملوك ضروا عليه ولم يميزوا فيه) .

وقدم الطعام الى ابن الفرات فامتنع عنه وقال : انا صائم. وحضر وقت الافطار فأعيد اليه فقال : لست افطر الليلة، واجتهد به، فلم يفعل وقال : انا مقتول في غد لا محالة !

وفي اليوم الثاني الاثنين الثالث عشر من ربيع الآخر جاء القائد (نازوك) الى الحجرة المعتقل فيها ابن الفرات وانفذ عجيبا خادمة حتى ضرب عنق المحسن ابن ابى الفرات، وجاء برأسه الى ابيه فوضعه بين يديه فارتاع لذلك ارتياعا شديدا وعرض هو على السيف فقال لنازوك يا أبا منصور ليس الا السيف ؟! راجع امير المؤمنين في امري، فأني أقر بأموالي وودائعي وعندي جوهر جليل !

فقال نازوك : جل الأمر عما تقدر. ثم امر به فضربت عنقه وحمل رأسه ورأس المحسن الى دار السلطان حيث غرقا في الفرات وطرحت جثتاهما في دجلة .

ومض ابن الفرات عن احدى وسبعين سنة وشهور، والمحسن عن ثلاثة وثلاثين سنة، وكانت مدة وزارته الثالثة سنة واحدة. وظلت كلمته الاخيرة تظلله حينما قال ابوالحسن بن الفرات : أصل امور السلطان مخرقة، فاذا تمت واستحكمت صارت سياسة .

وقال : تمشية امور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب ولا ندري من هو ميكافللي.. اصاحبنا ام زميله الايطالي ؟!

من هم السيخ ؟!

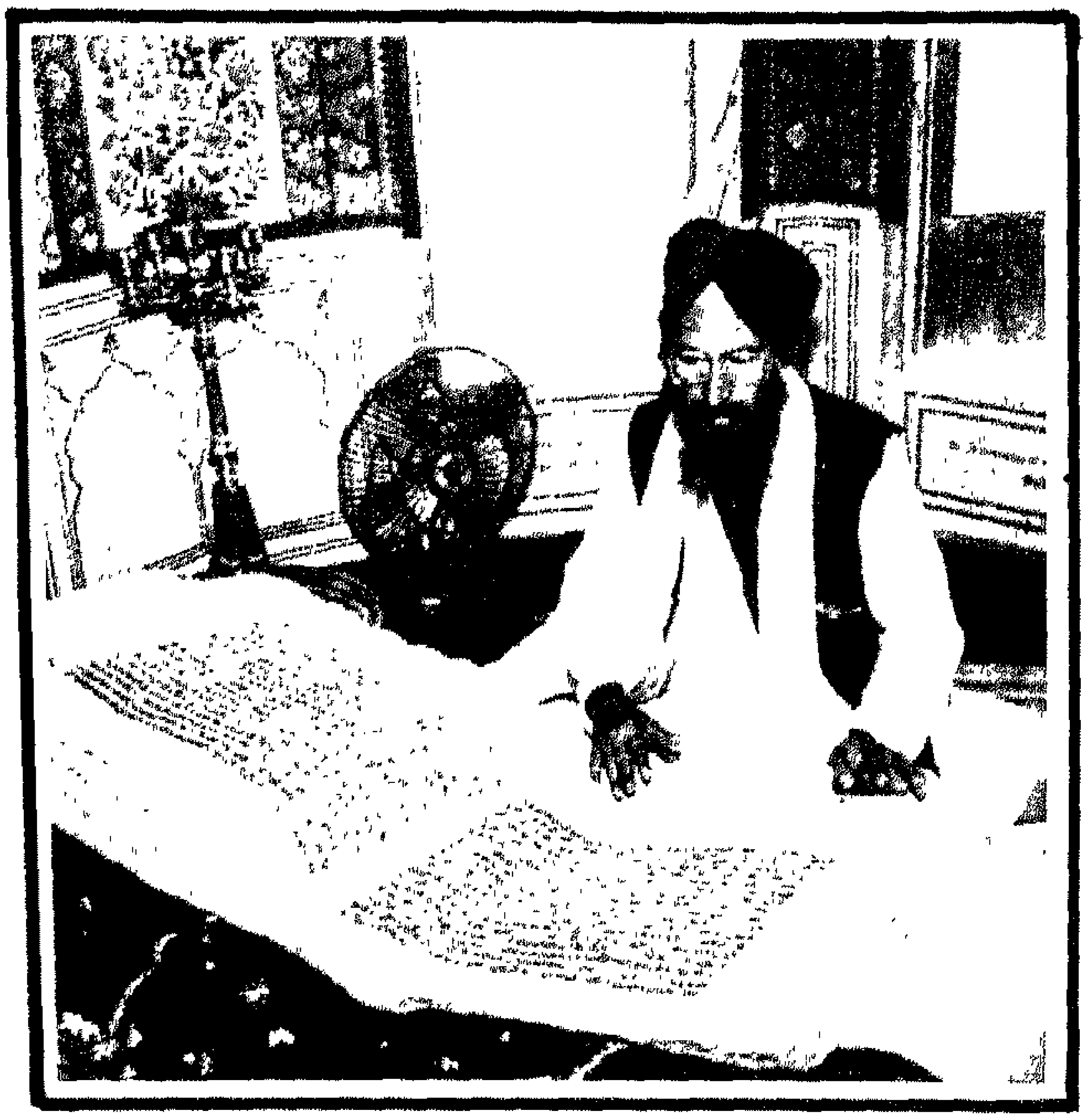

(سؤال كان يتردد على استحياء في الصحف العالمية مؤخرا : من هم السيخ ؟! وكان الجواب بالنسبة للصحافة سطحيا، سطحية (البوست كارد) فهم ليسوا سوى الوان جميلة بثيابهم الملونة ولحاهم المزعفرة، وهم مجرد صور على البطاقات البريدية.. ونداءاتهم بدولة (خاليستان) ما هى الا مجرد بهرجة من المواد الفلكلورية التى تزدحم بها القارة الهندية.

لكن عندما اغتيلت رئيسة وزراء الهند انديرا غاندى من قبل افراد من طائفة السيخ، انبثقت الاسئلة لماذا ؟! من...؟ كيف... والاسئلة ظلت تبحث عن الاجوبة تحاول توضيح بعض الجوانب الغامضة).

بدخول الاسلام الهند اهتزت عقائد الهند القديمة من العبادات الوثنية. عبادة الفيلة، القرود، البقر، الافاعى، الى اخره، حتى الديانات الكبيرة: الهندوسية، البوذية، الجانتية، ومنذ اكثر من ثمانمئة عام عندما وصل الاسلام الى الهند، كان العرب يحملون ايمانهم بان الدين الاسلامى للبشر اجمعين. وثار الهندوس، وحاولوا طرد العرب المسلمين، لكن العرب استقروا فى الهند وانتشر دينهم ولم ينقض وقت طويل حتى اصبح للاسلام عدد كبير جدا من الاتباع والانصار.

لقد اقبلت الطبقات المنبوذة والمستضعفة على اعتناق الاسلام، الذى كان يمثل الخلاص من القيود الاجتماعية والدينية والطبقية التى فرضتها الديانة الهندوسية... ثم انتقل هذا الاهتمام الى المفكرين ورجالات القصور الحاكمة نتيجة الزيارات والمناقشات التى يقوم بها علماء الاسلام من فقهاء ومتكلمين وفلاسفة ومتصوفين .. وعلى مدى مرور السنين وتمازج وتنافر القوى السياسية الاسلامية والهندوسية تولدت اتجاهات تدعو الى توحيد الاسلام والهندوسية.

وبدأ المعلمون الهنود يدرسون الاسلام وينتقون ما يستهويهم ويبقون على مايرضى قومهم من اساليب وعادات هندوسية، فظهرت كثير من المذاهب الهندية التى تحاول التوفيق، ويدعو اليها مصلحون سواء ذوى اصول دينية هندوسية ام من اصول الاسلامية.

ظهور ناناك

نجد القرن الخامس عشر يتسم بخضم هائل من الصراعات العسكرية والاضطرابات السياسية والتوترات، توج بغزو تيمورلنك للهند فى عام ١٣٩٨. نجد ان الحالة الفكرية فى الهند كما يصفها احد الكتاب انذاك كالتالى: ان عددا من الهنود الذين دخلوا الاسلام يرتدون عنه لسبب او لاخر. نجد مسلمين لايعرفون كيف يتخلصون من جذورهم الهندوسية، ويبقون على ماهم عليه كلية من تقاليد وعادات ابعد ما تكون عن الاسلام، ومفكرين هندوس يكتبون عن الفكر الاسلامى، ومفكرين مسلمين يكتبون عن الهندوسية، وشعراء هندوس يقرضون الشعر بالاوردية (خليط من العربية والفارسية والتركية) ويتولى الهندوس المناصب العليا فى الولايات الاسلامية ويتولى المسلمون قيادة الجيوش فى الولايات الهندوسية...

وفى نهايات القرن الخامس عشر انجب هندوسى نبيل وزوجته الصالحة فى مدينة تالوندى باقليم لاهور بالهند ولدا اسمه (ناناك) وكان حاكم تالواندى وقت مولده من اصل هندوسى ولكنه تحول الى الاسلام. الا انه ظل متسامحا حيال تابعى عقيدته القديمة وكان يشجع اية محاولة للتقريب بين العقيدتين.

ترعرع ناناك وسط هذه الاجواء. ظاهريا كان ناناك يكره القيام باى عمل، حتى ان اباه عجز عن ان يجعله يعمل من اجل ان يكسب حتى قوته... فزوجه ابوه حتى يعمل لاعالة اسرته.. الا ان الفتى ظل كارها للعمل، فأوجد له ابوه عملا كموظف حكومى، لكن الفتى بدلا من ان يذهب الى عمله كان ينطلق الى الغابات يحلم احلام يقظته ويدرس ويتعلم الهندوسية والسنسكريتية والفارسية ويدرس الديانات الهندوسية والبوذية والاسلامية.

تقول كتابات السيخ الشعبية او الاسطورية: ان قدم ناناك قادتاه يوما - بعد ان اغتسل بمياه النهر المقدسة - الى احدى الغابات حيث اختفى لمدة ثلاثة ايام. اما ما حدث اثناء ذلك فيدعى السيخ ان (الرب) ظهر وقال له: انا معك وسأجعلك وكل من يتبعك فى سعادة. اذهب واذكرنى، وادع الاخرين لذلك. كن طاهرا واذكر اسمى دائما. تعرف وتأمل. اعطيك هذا الكأس المليء بالمياه المقدسة، وعد برعايتى لك.

وامام رهبة الموقف نطق ناناك قائلا: الله الواحد. اسمه الحقيقة، الخالق. لا يعرف الخوف ولا البغضاء، خالد، لم يولد، موجود بذاته، عظيم وكريم، الواحد الحق منذ البداية، الواحد الحق منذ الازل، الواحد الحق يكون، وكان وايضا سيكون، الواحد الحق دائما موجود، يكررها السيخ كل صباح. (تذكروا الاية القرآنية الكريمة **قل هو الله احد. الله الصمد لم يلد ولم يولد**).

وبقية القصة تقول: عاد ناناك الى بيته واخبرهم بانه اصبح **(جورو)** فسألته زوجته: **ولكن ما هو الجورو ؟** فاجاب بانه اصبح معلم العقيدة الجديدة، فسأله ابوه: **(وما هى هذه العقيدة الجديدة)**، فاجاب ناناك: (الان ليس هناك هندوسى ولا مسلم...) فقالت له امه: **كيف تستطيع ان تقول مثل هذا القول، الا ترى ان فى بلادنا ملايين من الهندوسيين وملايين من المسلمين ؟)**

وبدأ ناناك يشرح تعاليمة الخاصة بالآله الواحد وبانه لاتوجد طوائف وبانه من الاثم ان يعبد الناس الاصنام.

فقال له ابوه: لست ارى فارقا بين تعاليمك وتعاليم كبير (كبير مصلح هندى من اصل اسلامي) فاجاب ناناك: لكن يعبد الناس الآله الواحد الحق لابد لهم من امام وهو الجورو... وانا اول جورو فى عقيدتى الجديدة.

وانطلق ناناك يبشر بدعوته شعرا واغانى بين الناس، هو وتابعه موردانا الذى يرددها على شكل اغان، وموردانا هذا هو احد المسلمين. وكانت عقيدة ناناك تقوم على التوحيد والمساواة كالمسلمين، كما تقول بالتناسخ كالهندوس، واقام ناناك فى مدينة سلطانبور فى عام ١٤٩٩ وصارت جل دعوته تتمحور حول فكرة التعاون واحترام الانسان، وكان فى هذه المجالات مجددا بالنسبة الى تلك المنطقة من العالم التى لم يكن الاسلام قد انتشر فيها بعد، وهو فى مذهبه وسط بين ما كان هناك وما يدعو اليه الاسلام، ووقف مجاهدا ضد حرق الارامل بعد وفاة ازواجهن، وفى نفس الوقت رفض لبس المرأة للحجاب، وهو ماكان سائدا فى تلك المنطقة، على عكس المنطقة العربية التى لم يدخلها الحجاب الا من دخول الاسيويين اليها.

راح ناناك يجوب البلاد.. بلاد الهند من سيلان فى اقصى الجنوب الى كشمير فى اقصى الشمال... كما اتجه الى بلاد العرب فى الغرب، وكان يلبس حلة ملونة توضح فكرته لجمع الديانتين، قميص ملون وفوقه ملاءة بيضاء، وعلى رأسه عمامة ضخمة وعقد من العظام، بينما وضع على جبهته علامة كالهندوس. (يذكر بعض الباحثين مدى تأثر ناناك بالمتصوفين المسلمين حتى فى ملابسهم).

وفى السبعين من عمره مات ناناك . والنجاح الذى حققه ناناك كان مجرد نجاح روحى وحسب، حيث خلف بضعة الوف من الاتباع. واتى بعده فى العقيدة الجورو الثانى والثالث والرابع والخامس. اما الجورو الخامس فلقد جمع اقوال ناناك وعظاته واشعار رامانانا وكبير (مصلحين من الهنود) فى كتاب واحد سماه (صاحب المواهب) اصبح هو الكتاب المقدس لاتباع ناناك الذين سمو انفسهم بالسيخ (المريدين).

كان الجورو الخامس ارجان يحاول نشر عقيدة السيخ الا ان زعماء العقائد الاخرى لم يحبذوا تعاليم السيخ واعترضوه ، واستطاع الجورو ارجان فى فترة قيادته ان يحول اتباعه الفلاحين المؤمنين الى اثرياء حينما حول مسار السيخ الاقتصادى ، فطور تجارة الجياد، التى كانت اكثر التجارات نجاحا انذاك، وبعث بتجاره حتى وصلوا الى تركستان، وكان فى ذلك يعمل من اجل الغاء اسطورة قديمة كانت تقول بانه لاينبغى على الهندى ان يترك وطنه لانه لو فعل سيصاب بشر كبير.. وهكذا صار السيخ اغنياء والجميع يحسدهم على هذه الثروة.

لقد ازداد نفوذ ا لسيخ حتى ان الأمير خسرو لجأ الى ارجان عندما تمرد على ابيه سليم ، بعد موت السلطان على اكبر ، ولم يتردد ارجان من مد خسرو بالمال والرجال الا ان سليم (جيهان جير فيما بعد) وبعد ان سيطر على الحكم لم ينس هذا الامر فالقى القبض على ارجان واعدمه ويعتبره السيخ اول شهدائهم.

العمامة والسيف

وراحت زعامة السيخ تنتقل من واحد الى آخر حتى تولاها الجورو العاشر (غوفند سنج) الذى رفض عند تنصيبه (١٦٠٦/ ١٦٤٠) ارتداء العمامة والعقد، وهما التقليد الذى وصل اليه من أسلافه واعلن بصراحة: ان عقدى سيكون حزام السيف وعمامتى سوف تزين بزهور ملكية، دلالة على الاتجاه الجديد الذى سيقود اليه السيخ.

صرف غوفند سنج همه الى تدريب اتباعه عسكريا وانتقل بهم عشرين سنة الى جبال الهيملايا ليتعودوا حياة الخشونة والحروب، ثم نزل بهم البنجاب لتدور بينه وبين حاكمها المسلم حروب طويلة امتدت اثنى عشر عاما، وهلك فيها الالاف من اتباعه السيخ حتى خمدت ثورتهم وانزل بهم الحاكم انتقاما رهيبا، اجج العداء فى نفوس السيخ ضد المسلمين، حتى انهم فيما بعد وعندما حكموا منطقة البنجاب اذاقوا المسلمين الويل، حتى اصبح المثل (حكم سيخى) يطلق على اى حكم قاس متسلط لدى مسلمى الهند.

كان غوفند كاهنا كبيرا ومنظما مدنيا وزعيما عسكريا كبيرا، وعمد اول ما عمد الى تنقية (اللاهوت) الذى كان قرنان من المغامرات والتطورات قد عقداه كثيرا وبدلا منه تبديلا، ومن بعد غوفند لن يعود هناك زعماء (غورو) بل

سيصبح القادة الجدد وارثين وهو ما يتناقض مع ما كان ناناك يريده باصرار، ولن يعود هناك من قائد منظور (فالخالسا) اى الجوهر الخالص للدين هو الذى سيقود منذ ذلك الحين خطى السيخ، وفى سبيل ايجاد وتعريف وتحديد لذلك الجوهر وضع غوفند كتاب (ادى غرافت) الذى يحمل تعاليم ناناك واقتصاد ارجان، ولينجزه غوفند شعرا وجعل من الواجب على اتباعه حفظه وغناءه ، وزود غوفند اتباعه بمخالب حديدية خمسة وهى (الكافات الخمس) وهى: كيش، كانغا، كارا، كاشا، كربان.

وتهدف ال (كيش) الى عدم قص الشعر واللحى والشوارب، و (كانغا) استعمال مشط خشبى فى الشعر لاجل الابقاء على الخصلة الطويلة مدورة حول الرأس، و (كاشا) لكى يكون السيخى مستعدا لنجدة ابناء جلدته، منع غوفند رجاله من ارتداء اللبس الهندى والبسهم سروالا قصيرا، ولان المحاربين يجب ان لا يضعفوا امام اشياء الحياة الدنيا منعهم من حمل الجواهر والبسهم سوارا حديديا (والكارا) هى العمامة المطلية بلون الزعفران المقدس. تلك هى العوامل الخارجية التى تجعل السيخ متميزين عن الاخرين، ويعرفون كطائفة فى مقابل الاخرين حتى فى التفاصيل.

قضى غوفند سنج حياته كلها معارك مستمرة ضد ملوك المغول المسلمين حتى اطاح به الامبراطور المغولى اوار نغريب وقتل هو واولاده جميعا خلال حروبهم المتواصلة مع جيوش المغول واختتمت ذرية زعماء السيخ.... بعد ان جعل من امريتسار العاصمة، ثم وضع لنفسه ولشعبه امبراطورية فى البنجاب وصارت البنجاب ملكوتا ارضيا للسيخ.

اسود وقطط

فيما بعد عانى الانجليز كثيرا من اسود البنجاب حتى ان القائد البريطانى ولينغتون قائد معركة واترلو قرر ضرورة تسليمه القيادة فى الهند. ولكن بعد ذلك تحولت أسود البنجاب الى قطط، وتحول السيخ من العداء الى الانجليز حتى صاروا الاكثر اخلاصا للامبراطورية الانجليزية.

الذى يلفت النظر فى هذا التاريخ الصاخب حسب رأى بعض المحللين بالنسبة لتواريخ الجماعات المذهبية الاخرى فى عالمنا المعاصر هو ذلك التطور الهائل الذى اصاب هذا (الشعب) الذى لايمكن اعتباره شعبا لانه عرقيا تكون من جماعات عرقية مختلفة (الجات ـ الهندورسين ـ الاروراس ـ

المــازايس) وتركيبتهم فــلاحيــة والذى استــطاع شــاعــر ان يجمعهم ... واقتصادى ان يثريهم، وقائد عسكرى ان يحولهم الى اسود.

ومازالت العوة لاحياء مملكة السيخ (خاليستان) هو الحلم الذى يعمل على تحقيقه (الجورو) الاخير، ولكنه هذه المرة ليس قائدا فردا بل حزب يدعى (اكالى دال) او جيش الله والمصادمات اليومية فى الهند والتى تتصدر عناوين الأنباء غير مستبعدة عن التحقيق!.

الفهـــــرس

1ـ المقدمة	5
2ـ جزيرة عبر العصور	7
3ـ كما النفط كان اللؤلؤ	15
4ـ مملكة هرمز الفقاعة الذهبية	27
5ـ لنجة لؤلؤة عربية على شرق الخليج	35
6ـ مذكرات أميرة عربية	41
7ـ سلطانة فى نيويورك	51
8ـ من كوبنهاجن الى صنعاء	59
9ـ الشرق فى عيون الغرب	67
10ـ الموريسكيون.. عرب الاندلس	77
11ـ سبع خطوات.. بسبعمائة الف دينار	89
12ـ من هم السيخ؟	99

كتاب: مملكة هرمز الفقاعة الذهبية.
المؤلف: ابراهيم محمد بشمي
رقم الايداع في المكتبة العامة ـ البحرين.
الطبعة الاولى/ ١٥٤١/د.ع/ ١٩٩٤
من اصدارات: مؤسسة الايام للصحافة والطباعة والنشر.
المنامة ـ البحرين ص.ب ٣٢٣٢
هاتف: ٧٢٧١١١ ـ فاكس ٧٢٣٣٠٠

2 19988
15.00

من اصدارات: مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر
هاتف: ٧٢٧١١١ فاكس: ٧٢٩٠٠٩ ص. ب: ٣٢٣٢ المنامة ـ البحرين